وإني سميتها مريم

تأليف

د. عادل حسن الحمد

هدهد
للطباعة والنشر

وإني سميتها مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

وإني سميتها مريم

تأليف

د. عادل بن حسن يوسف الحمد

هدهد
للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
١٤٤٨هـ ـ ٢٠٢٦م

Ini samituha mariam

ISBN: 978-625-96332-2-0

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين والصَّلاة والسَّلام عَلَى أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمد وَعَلَى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فهذه هِيَ السِّلسلة الرَّمضانية الرَّابعة كتبتها فِي شهر رمضان المبارك من عام ١٤٤٤هـ، وخصَّصت هَذِهِ السِّلسلة للحديث عَن قصَّة مريم ابنة عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ.

وقصَّة مريم تمثل لنا نموذج المَرْأَة العفيفة الطَّاهرة العابدة للَّه التي أخبر النبي ﷺ عنها أَنَّهَا بلغت رتبة الكمال من النِّساء.

ومريم ابنة عمران هي المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها فِي القرآن صراحة، وهذا تكريم لها، ورفعة أن يتلى اسمها فِي محاريب الصلاة إلى يوم القيامة.

ولأهمية قصَّتها سميت سورة كاملة باسمها، ذكر اللَّه فيها قصَّة مريم وحملها وولادتها بنبي اللَّه عيسى

وما مرت به من أحوال مختلفة ومعجزات. وهي دروس وعبر للمؤمنين والمؤمنات فِي مواجهة فتن الحياة الدُّنيا، ومغرياتها.

وقد نشرت هَذِهِ القصَّة عَلَى شكل حلقات قصيرة، أنشر مِنْهَا حلقة فِي كُلِّ يوم من أيام رمضان المبارك لعام ١٤٤٤هـ.

أسأل اللَّه العظيم رب العرش العظيم أن يجعلها خالصة لوجهه، وأن يتقبلها منِّي، ويثقل بها موازين حسناتي، وينفع بها كل من قرأها، أو سمعها.

وآخر دعوانا أن الحمد اللَّه رب العالمين.

وكتبه
د. عادل بن حسن يوسف الحمد
٢٥ رمضان ١٤٤٥هـ

(١) قصة مريم آية للعالمين

مريم بنت عمران

هي المرأة الوحيدة التي ذكرها اللَّه باسمها فِي القرآن الكريم، قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ ذكرها اللَّه باسمها فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ ابْنُ التِّلْمِسَانِيِّ فِي «شَرْحِ الشِّفَاءِ» لِعِيَاضٍ: لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ امْرَأَةً فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهَا إِلَّا مَرْيَم للتّنْبِيه عَلَى أَنَّهَا أَمَةُ اللَّهِ إِبْطَالًا لِعَقَائِدِ النَّصَارَى». {التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧٨}.

وهذا دليل عَلَى علو مكانتها.

وسمى اللَّه سورة كاملة باسمها، وهي سورة مريم.

وذكر قصتها فِي سبع سور من القرآن، فِي سورة البقرة، وآل عمران، والنِّساء، والمائدة، ومريم، والأنبياء، والمؤمنون، والتحريم.

وقصة مريم آية من آيات اللَّه تعالى للعالمين، قال

تـــعـــالـــى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ: وَجَعَلْنَا مَرْيَمَ وَابْنَهَا عِبْرَةً لِعَالَمَيْ زَمَانِهِمَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمَا وَيَتَفَكَّرُونَ فِي أَمْرِهِمَا، فَيَعْلَمُونَ عَظِيمَ سُلْطَانِنَا وَقُدْرَتِنَا عَلَى مَا نَشَاءُ،». (جامع البيان ١٦/ ٣٩١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ، أَيْ حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاس مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى». (تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤).

فقصة مريم المراد منها التفكر فِي أحداثها، وأخذ العبرة منها، وإدراك عظيم سلطان اللَّه وحجته عَلَى البشرية.

وضرب اللَّه بمريم المثل عَلَى إيمان المؤمنين باللَّه وما أمر به وشرعه، فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١-١٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْمَثَلُ الثَّانِي لِلْمُؤْمِنِينَ مَرْيَمُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، لَا مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ، فَذَكَرَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ مِنْ النِّسَاءِ: الْمَرْأَةَ الْكَافِرَةَ الَّتِي لَهَا وَصْلَةٌ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَالْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ الَّتِي لَهَا وَصْلَةٌ بِالرَّجُلِ الْكَافِرِ، وَالْمَرْأَةَ الْعَزَبَ الَّتِي لَا وَصْلَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَحَدٍ: فَالْأُولَى لَا تَنْفَعُهَا وَصْلَتُهَا وَسَبَبُهَا، وَالثَّانِيَةُ لَا تَضُرُّهَا وَصْلَتُهَا وَسَبَبُهَا، وَالثَّالِثَةُ لَا يَضُرُّهَا عَدَمُ الْوَصْلَةِ شَيْئًا.

ثُمَّ فِي هَذِهِ الْأَمْثَالِ مِنْ الْأَسْرَارِ الْبَدِيعَةِ مَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ السُّورَةِ؛ فَإِنَّهَا سِيقَتْ فِي ذِكْرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ تَظَاهُرِهِنَّ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُنَّ إنْ لَمْ يُطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُرِدْنَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمْ يَنْفَعْهُنَّ اتِّصَالُهُنَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا لَمْ يَنْفَع امْرَأَة نُوح وَلُوط اتِّصَالُهمَا بِهِمَا، وَلِهَذَا إنَّمَا ضَرْب فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَثَلَ اتِّصَالِ النِّكَاحِ دُونَ الْقَرَابَةِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَّام: ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ الْأَوَّلَ يُحَذِّرُ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمَا الْمَثَلَ الثَّانِيَ يُحَرِّضُهُمَا عَلَى التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ.

وَفِي ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْيَمَ أَيْضًا اعْتِبَارٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهَا لَمْ يَضُرَّهَا عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا قَذْفُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْيَهُودِ لَهَا، وَنِسْبَتُهُمْ إِيَّاهَا وَابْنَهَا إِلَى مَا بَرَّأَهُمَا اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ كَوْنِهَا الصِّدِّيقَةَ الْكُبْرَى الْمُصْطَفَاةَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ؛ فَلَا يَضُرُّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ قَدْحُ الْفُجَّارِ وَالْفُسَّاقِ فِيهِ.

وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانَتِ السُّورَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ قِصَّةِ الْإِفْكِ، وَتَوْطِينُ نَفْسِهَا عَلَى مَا قَالَ فِيهَا الْكَاذِبُونَ إِنْ كَانَتْ قَبْلَهَا، كَمَا فِي ذِكْرِ التَّمْثِيلِ بِامْرَأَةِ نُوحٍ وَلُوطٍ تَحْذِيرٌ لَهَا وَلِحَفْصَةَ مِمَّا اعْتَمَدَتَاهُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَمْثَالُ التَّحْذِيرَ لَهُنَّ وَالتَّخْوِيفَ، وَالتَّحْرِيضَ لَهُنَّ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالتَّسْلِيَةَ وَتَوْطِينَ النَّفْسِ لِمَنْ أُوذِيَ مِنْهُنَّ وَكُذِبَ عَلَيْهِ، وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ فَوْقَ هَذَا وَأَجَلُّ مِنْهُ، وَلَا سِيَّمَا أَسْرَارُ الْأَمْثَالِ الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ». (إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٥).

وفي هذه السلسلة الرمضانية الرابعة سنتناول قصة

مريم بحول اللَّه وتوفيقه، وما فيها من الدروس والعبر، سائلين المولى ﷻ أن ينفعنا بها، وأن يصلح أحوالنا بمدارستها .

(٢) بداية حمل امرأة عمران بمريم

تبدأ قصة مريم من حمل أمِّها امرأة عمران بها، فقد حملت بها امرأة عمران بعد إياس من الحمل، وتوفي زوجها عمران وهي حامل قبل ولادتها لمريم.

وآل عمران ممن اصطفاهم اللَّه سبحانه عَلَى العالمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَاصْطَفَى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، لَمَّا عَبَدَ النَّاس الأوثان، وأشركوا باللَّه مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَانْتَقَمَ لَهُ لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ قَوْمِهِ

يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجِهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ، وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَآلَ عِمْرَانَ وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابن مريم عليه السلام». (تفسير ابن كثير ٢/٢٧).

وقال أبو زهرة رحمه الله: «معنى الاصطفاء: طلب الصفوة من كل شيء، ولذلك قالوا إنَّ معناها اختارهم مؤثرا لهم عَلَى غيرهم، وفي التَّعبير بالاصطفاء إشارة إلى أنَّ آدم ونوحًا، وآل إبراهيم وآل عمران هم صفوة النَّاس والتعبير بعلى فِي قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى معنى التفضيل عَلَى غيرهم من النَّاس؛ فهم صفوة النَّاس، وهم مفضلون عَلَى كل النَّاس. وآل إبراهيم هم أسرة إبراهيم بفروعهم، سواء منهم من أووا إلى مكة وكان منهم صفوة الخلق محمد ﷺ، ومن كانوا فِي الأرض المقدسة وكان منهم النبيون من بعد، وآل عمران هم ذرية عمران، وَهُوَ أبو مريم البتول، ومن ذرية عمران السيد المسيح عليه السلام الذي خلقه رب العالمين بكلمة منه هي «كن».

وإن فِي ذلك التَّسلسل إشارة إلى أنَّ الخليقة لم تخل من هاد يهديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم». ﴿زهرة التفاسير ٣/١١٩٤﴾.

والله جل فِي علاه ذكر تفاصيل حياة من اصطفاهم من هذه البيوت الكريمة لنقتدي بهم، ونأخذ العبرة من حياتهم فِي حياتنا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ودلَّ هذا عَلَى أنَّ هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلًا منه وكرمًا، ومن الفائدة والحكمة فِي قصّه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل اللَّه أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة». ﴿تفسير السعدي ١٢٩﴾.

فامرأة عمران من بيت اصطفاهم اللَّه عَلَى العالمين، وهذه أول منقبة لمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فهي من سلالة هذا البيت، وتربت فيه؛ بيت طاعة وعبادة.

وهذه فائدة لكل أمٍّ تسعى لتربية ذريتها عَلَى الخير والصَّلاح أن تبدأ تأسيس حياتها الزَّوْجيَّة عَلَى طاعة اللَّه.

وأولى خطوات التَّأسيس الاختيار الصحيح للمتقدم للزواج، والذي تنطبق عليه المواصفات التي ذكرها النبي ﷺ فِي الزوج الصَّالح وهي فِي قوله ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ». {رواه الترمذي وابن ماجه}.

ومع الأسف الشديد فقد انتشرت بعض الأفكار الخاطئة بين بنات هذه الجيل ممن فيهن خير وصلاح، وهي أَنَّهَا لا تريد الرجل الذي يظهر عليه التمسك بدينه بشكل ظاهر، وتعبر عنه بأنَّه (متشدد) فهي لا تريد أن تُحرم من متع الدنيا لأنَّها تظن أنَّ هذا النوع من الرجال سيحرمها من حضور وسائل وبرامج التَّرفيه المعاصرة!.

إنَّها تريد أن تعيش حياتها وتستمع بهذه الدنيا ولا تريد من يُضيِّق عليها بزعمها!.

وهذه هي بداية الانحراف فِي الحياة الزَّوْجيَّة، فمثل هذه الفتاة، والتي تحمل فِي رأسها مثل هذه الأفكار المغلوطة، لا يمكن أن تتحصَّل عَلَى نتائج عظيمة من زواجها برجل متساهل مثلها فِي دينه، إنَّها لا تريد التَّشدُّد، والتَّشدُّد عندها يعني: التَّمسك بتعاليم الإسلام وعرض كلَّ شيء فِي الحياة عَلَى ميزان الشَّرع، ولأنَّ الحرام فِي هذه العصر كثير، فهي ترى أنَّ هذا

الرَّجل يمتنع عن فعله، ولا ينصاع لضغط الواقع والمجتمع وما يريده أهل الشَّهوات، فهو متشدِّد فِي نظرها.

وهذه الحقيقة المرَّة لا تدركها الفتاة مع الأسف إلا بعد فوات الأوان، إلا أن يشاء اللَّه لها غير ذلك.

حملت امرأة عمران بعد أن تأخر حملها واشتهت الولد، فكان من شكرها للَّه ﷻ عَلَى هذا الحمل أن نذرت ما فِي بطنها للَّه ﷻ؛ متفرغا لعبادته، وخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعْنَاهُ: إِنِّي جَعَلْتُ لَكَ يَا رَبِّ نَذْرًا أَنَّ لَكَ الَّذِي فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا لِعِبَادَتِكَ، يَعْنِي بِذَلِكَ: حَبَسْتُهُ عَلَى خِدْمَتِكَ وَخِدْمَةِ قُدُسِكَ فِي الْكَنِيسَةِ عَتِيقَةً مِنْ خِدْمَةِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاكَ، مُفَرَّغَةً لَكَ خَاصَّةً». (جامع البيان ٣٣١/٥).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نذرت أَنْ يَكُونَ مُحَرَّرًا أَيْ خَالِصًا مُفَرَّغًا لِلْعِبَادَةِ وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ،». (تفسير ابن كثير ٢٨/٢).

وفي هذه عبرة لكل امرأة طموحة فِي صلاح ذريتها، أن تبدأ حملها بنيَّة صالحة، ودعاء صالح لذريتها.

كما فعل نبي اللَّه سليمان عليه الصلاة والسلام، فقد عزم عَلَى معاشرة تسعين امرأة بنيَّة أن يلدن فرسانا يجاهدون فِي سبيل اللَّه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لأطوفنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّه، فقال له صاحبه: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّه، فطاف عليهن جميعا فلم تحمل مِنْهُنَّ إِلا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فرساناً أجمعون». (رواه البخاري).

فما نيَّتك من حملك؟ وما طموحك فِي ذريَّتك؟.

وهل هذه النيَّة وهذا الطموح فِي حدود دنيا المولود فقط؟! أم هي بالدرجة الأولى لآخرته والدنيا تأتي تبعا لذلك؟!.

تأمليها من فضلك جيدًا.

أما امرأة عمران، فقد نذرت أن يكون مولودها محررًا لعبادة اللَّه وخدمة بيت المقدس.

فهل لك نية فِي مولود يحرر بيت المقدس من دنس اليهود؟!.

(٣) وجاء المولود أنثى، ولادة مريم

كانت أمُّ مريم ترجو أن يكون المولود ذكرًا يخدم بيت المقدس، ولكنَّ اللَّه قدَّر المولود أنثى، عَلَى غير رغبة امرأة عمران. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، إنَّهَا تتحسر عَلَى فوات نذرها بولادة الأنثى. قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كأن فِي هذا الكلام نوع تضرُّع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء عَلَى أنَّه يكون ذكرًا، يحصل منه من القُوَّة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القُوَّة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر اللَّه قلبها، وتقبل اللَّه نذرها، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذُّكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذَّكر». (تفسير السعدي ٩٦٦).

وهذه المكافأة من اللَّه لامرأة عمران لأنَّ رغبتها فِي الذكر لم تكن بناء عَلَى العادة الجاهلية عند العرب

فِي حب الذُّكور وكراهية الإناث، وإنَّما كانت من أجل خدمة بيت المقدس، ولذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لِأَنَّ الذَّكَرَ أَقْوَى عَلَى الْخِدْمَةِ وَأَقْوَمُ بِهَا، وَأَنَّ الْأُنْثَى لَا تَصْلُحُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِدُخُولِ الْقُدُسِ وَالْقِيَامِ بِخِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ لِمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ». {جامع البيان ٣٣٧/٥}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى أَيْ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلَدِ فِي الْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى». {تفسير ابن كثير ٢٨/٢}.

لقد كانت امرأة عمران عَلَى دين قويم، لا يفضل الذُّكور فِي الإنجاب ويكره الإناث، فكل ذلك نعمة من اللَّه تستحق الشكر، وقد قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

فإِيَّاكِ أختي المسلمة وخَصلةَ الجاهليَّة التي تكره ولادة الأنثى، لا تقع فِي نفسك، فيبتليكِ اللَّه بما لا تحبين فتأثمين وأنت لا تشعرين.

وإذا كان أهل الجاهلية يفضلون الذُّكور ويكرهون ولادة الأنثى، فقد ابتلينا اليوم بخصلة جاهليَّة جديدة تخالف العقل والشرع وهي دعوى المساواة المطلقة بين الذَّكَرِ والأُنثى.

هذه الدعوى الباطلة أنكرتها امرأة عمران فطرة فقالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ الْأُولَى كَانَ وُجُودُهَا الْأَوَّلُ مُسْتَنِدًا إِلَى وُجُودِ الرَّجُلِ وَفَرْعًا عَنْهُ. وَهَذَا أَمْرٌ كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ مِنَ اللَّهِ، أَنْشَأَ الْمَرْأَةَ فِي إِيجَادِهَا الْأَوَّلِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ جَاءَ الشَّرْعُ الْكَرِيمُ الْمُنَزَّلُ مِنَ اللَّهِ لِيُعْمَلَ بِهِ فِي أَرْضِهِ بِمُرَاعَاةِ هَذَا الْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ الْقَدَرِيِّ فِي حَيَاةِ الْمَرْأَةِ فِي جَمِيعِ النَّوَاحِي. فَجَعَلَ الرَّجُلَ قَائِمًا عَلَيْهَا وَجَعَلَهَا مُسْتَنِدَةً إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ شُئُونِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الْآيَةَ [النساء: ٣٤].

فَمُحَاوَلَةُ تحقيق اسْتِوَاءِ الْمَرْأَةِ مَعَ الرَّجُلِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ؛ لِأَنَّ الْفَوَارِقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ كَوْنًا وَقَدَرًا أَوَّلًا، وَشَرْعًا مُنَزَّلًا ثَانِيًا تَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ مَنْعًا بَاتًّا.

وَلِقُوَّةِ الْفَوَارِقِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَعَنَ الْمُتَشَبِّهَ مِنَ النَّوْعَيْنِ بِالْآخَرِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ سَبَبَ هَذَا اللَّعْنِ هُوَ مُحَاوَلَةُ مَنْ أَرَادَ التَّشَبُّهَ مِنْهُمْ بِالْآخَرِ، لِتَحْطِيمِ هَذِهِ الْفَوَارِقِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَطَّمَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».

وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الْحَدِيثَ بِسَنَدِهِ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيَّنَّا هُنَاكَ أَنَّ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ مَلْعُونٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَلَوْ كَانَتِ الْفَوَارِقُ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى يُمْكِنُ تَحْطِيمُهَا وَإِزَالَتُهَا لَمْ يَسْتَوْجِبْ مَنْ أَرَادَ ذَلِكَ اللَّعْنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَلِأَجْلِ تِلْكَ الْفَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَرَّقَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَهُمَا فِي الطَّلَاقِ، فَجَعَلَهُ بِيَدِ الرَّجُلِ دُونَ الْمَرْأَةِ، وَفِي الْمِيرَاثِ، وَفِي نِسْبَةِ الْأَوْلَادِ إِلَيْهِ. وَفِي تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ دُونَ الْأَزْوَاجِ. صَرَّحَ بِأَنَّ شَهَادَةَ امْرَأَتَيْنِ بِمَنْزِلَةِ شَهَادَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ الْآيَةَ

[البقرة: ٢٨٢]، فَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمَا لَا شَكَّ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَتِهِمَا، وَقَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ بِقِيَامِ الرَّجُلِ مَقَامَ امْرَأَتَيْنِ فِي الشَّهَادَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢]، أَيْ غَيْرُ عَادِلَةٍ لِعَدَمِ اسْتِوَاءِ النَّصِيبَيْنِ لِفَضْلِ الذَّكَرِ عَلَى الْأُنْثَى. وَلِذَلِكَ وَقَعَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ فِي مُشْكِلَةٍ لَمَّا وَلَدَتْ مَرْيَمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهَا: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ الْآيَةَ، فَامْرَأَةُ عِمْرَانَ تَقُولُ: وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى، وَهِيَ صَادِقَةٌ فِي ذَلِكَ بِلا شَكٍّ. وَالْكَفَرَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى سَوَاءٌ. وَلا شَكَّ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ فِي صِدْقِ هَذِهِ السَّالِبَةِ وَكَذِبِ هَذِهِ الْمُوجَبَةِ».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِذَا تَعَاشَرَا الْمُعَاشَرَةَ الْبَشَرِيَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي لَا بَقَاءَ لِلْبَشَرِ دُونَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ تَأَثُّرًا طَبَعِيًّا كَوْنِيًّا قَدَرِيًّا مَانِعًا لَهَا مِنْ مُزَاوَلَةِ الْأَعْمَالِ كَالْحَمْلِ وَالنِّفَاسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْمَرَضِ وَالْأَلَمِ.

بِخِلَافِ الرَّجُلِ فَإِنَّهُ لَا يَتَأَثَّرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذِهِ الْفَوَارِقِ لَا يَتَجَرَّأُ عَلَى الْقَوْلِ بِمُسَاوَاتِهِمَا فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ إِلَّا مُكَابِرٌ فِي الْمَحْسُوسِ، فَلَا يَدْعُو إِلَى الْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمَا إِلَّا مَنْ أَعْمَى اللَّهُ بَصِيرَتَهُ». (أضواء البيان ٧/٤١٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاعْلَمْ وَفَّقَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ لِمَّا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ: أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْكَافِرَةَ، الْخَاطِئَةَ الْخَاسِئَةَ، الْمُخَالِفَةَ لِلْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَلِلْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ وَتَشْرِيعِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ مِنْ تَسْوِيَةِ الْأُنْثَى بِالذَّكَرِ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ وَالْمَيَادِينِ، فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِخْلَالِ بِنِظَامِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ مَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا مَنْ أَعْمَى اللَّهُ بَصِيرَتَهُ. وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ الْأُنْثَى بِصِفَاتِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا صَالِحَةً لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ، صَلَاحًا لَا يُصْلِحُهُ لَهَا غَيْرُهَا، كَالْحَمْلِ وَالْوَضْعِ، وَالْإِرْضَاعِ وَتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ، وَخِدْمَةِ الْبَيْتِ، وَالْقِيَامِ عَلَى شُئُونِهِ. مِنْ طَبْخٍ وَعَجْنٍ وَكَنْسٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْخِدْمَاتُ الَّتِي تَقُومُ بِهَا لِلْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ دَاخِلَ بَيْتِهَا فِي سَتْرٍ وَصِيَانَةٍ، وَعَفَافٍ وَمُحَافَظَةٍ عَلَى الشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَا تَقِلُّ عَنْ خِدْمَةِ

الرَّجُلِ بِالِاكْتِسَابِ، فَزَعَمَ أُولَئِكَ السَّفَلَةُ الْجَهَلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَتْبَاعِهِمْ: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَهَا مِنَ الْحُقُوقِ فِي الْخِدْمَةِ خَارِجَ بَيْتِهَا مِثْلُ مَا لِلرَّجُلِ، مَعَ أَنَّهَا فِي زَمَنِ حَمْلِهَا وَرِضَاعِهَا وَنِفَاسِهَا، لَا تَقْدِرُ عَلَى مُزَاوَلَةِ أَيِّ عَمَلٍ فِيهِ أَيُّ مَشَقَّةٍ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ هِيَ وَزَوْجُهَا بَقِيَتْ خِدْمَاتُ الْبَيْتِ كُلُّهَا ضَائِعَةً: مِنْ حِفْظِ الْأَوْلَادِ الصِّغَارِ، وَإِرْضَاعِ مَنْ هُوَ فِي زَمَنِ الرَّضَاعِ مِنْهُمْ، وَتَهْيِئَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ لِلرَّجُلِ إِذَا جَاءَ مِنْ عَمَلِهِ، فَلَوْ أَجَرَوْا إِنْسَانًا يَقُومُ مَقَامَهَا، لتعَطَّلَ ذَلِكَ الْإِنْسَان فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ التَّعَطُّلَ الَّذِي خَرَجَتِ الْمَرْأَةُ فِرَارًا مِنْهُ؛ فَعَادَتِ النَّتِيجَةُ فِي حَافِرَتِهَا عَلَى أَنَّ خُرُوجَ الْمَرْأَةِ وَابْتِذَالَهَا فِيهِ ضَيَاعُ الْمُرُوءَةِ وَالدِّينِ». { أضواء البيان ٢٧/٣}.

فهل أدركت أختي المسلمة فساد الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل؟.

(٤) دعاء امرأة عمران لابنتها مريم

لما ولدت امرأة عمران، وعلمت بنوع مولودها، والذي جاء عَلَى غير رغبتها ورجائها، لم تجلس تندب حظها وتكتئب وتتحسَّر، وإنَّما بادرت بأخذ خطوات عملية فِي حياتها وحياة مولودتها الجديدة، فالموضوع لا يحتمل التَّأخير، والتَّحسُّر والتَّألم لا يغير من الواقع شيئًا.

فبدأت أولًا بتسميتها فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وأخذ العلماء من فعلها جواز تسمية المولود عند ولادته، كما قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي قولها وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ سنة تسمية الأطفال قرب الولادة ونحوه قول النبي ﷺ: ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم». (المحرر الوجيز ١/٤٢٥).

كما أنَّ فِي سرعة أخذها لهذه الخطوة دليلًا عَلَى

رضاها بنوع المولود، قال أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهي قد اختارت الاسم راضية بما أُعطيت». {زهرة التفاسير ١١٩٨/٣}.

ثم انتقلت امرأة عمران إلى أهم وسيلة فِي تربية الذُّرية، وهي الاستعانة باللَّه عَلَى صلاحهم والدُّعاء لهم، فقالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، متأسية بفعل أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والذي دعاء لذريته فِي مواطن كثيرة قصها اللَّه علينا، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وهذا خُلق عباد اللَّه الصالحين؛ الاستعانة باللَّه فِي تربيتهم لذرياتهم، وعدم الاتكال عَلَى أنفسهم وعلمهم وخبرتهم كما يتصورون.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٤-٧٥].

لقد خافت امرأة عمران عَلَى ابنتها من غواية الشيطان لها ولذريتها، فعوذتها وذريتها باللَّه من الشيطان الرجيم. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَوَّذَتْهَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَعَوَّذَتْ ذُرِّيَّتَهَا». {تفسير ابن كثير ٢٩/٢}.

وقال أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى الإعاذة أن تكون فِي ملجأ من اللَّه تعالى يعصمها من الشيطان؛ وذلك لأن التعوذ الالتجاء. فمعنى أعوذ باللَّه ألجأ إليه، وأتخذ منه معاذا، ومعنى أعذته باللَّه من الشيطان جعلت اللَّه تعالى معاذا له منه، وهذه الإعاذة كانت دعاء من اللَّه تعالى، فكان هذا الدعاء عبادة أخرى. وهكذا اقترنت ولادة مريم وحملها من قبل بعبادات متضافرة متوالية مستمرة، وضراعة تدل عَلَى خلاص النفس وإسلام الوجه للَّه تعالى». {زهرة التفاسير ١١٩٨/٣}.

واليوم أختي المسلمة، تنوعت وسائل الشيطان فِي غواية بني الإنسان، حتى أصبحنا نشتري وسيلة الشيطان التي يغوي بها بناتنا بأموالنا، ونودعها فِي أيديهن، فيلازمنها أكثر من ملازمتهن لذكر اللَّه والصلاة، وهي

هذه الهواتف المحمولة المتصلة بالإنترنت.

فهل عوذت ابنتك من شرها؟ وهل أخلصت لها الدُّعاء بظهر الغيب أن يحفظها اللَّه من كيد شياطين الإنس والجن؟.

وهنا لفتة جميلة فِي قول امرأة عمران: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أود أن أشير إليها وهي: أن امرأة عمران أمٌّ عَلَى الفطرة التي فطر اللَّه النَّاس عليها، تفكر فِي مصلحة ابنتها وفي مستقبلها، ومن مصلحة ابنتها الزواج والإنجاب، لذلك دعت امرأة عمران لابنتها مريم بالنتيجة التي تتمناها كل فتاة؛ وهي الذرية الصَّالحة.

ومَنْ هذه تفكيرها فلن تؤخر زواج ابنتها إذا جاءها الرجل المناسب، بحجة إكمال الدراسة والحصول عَلَى الشهادة وضمان المستقبل، كما هو حال بعض الأمهات الأنانيات فِي هذا الزمان اللاتي لا يفكرن إلا فِي مصلحتهن الشخصية ولو عَلَى حساب تحطم نفسية ابنتها.

فهذه الأمُّ الأنانية لا يهمها ما تعانيه ابنتها من رغبتها فِي الزواج، لأنَّها مكفية بزوجها، فلا تشعر بمعانة ابنتها.

وهذه الأمُّ الأنانية تحب الافتخار بين النساء بدراسة ابنتها، ولو كانت عَلَى حساب نفسيتها وتعاستها.

وهذه الأمُّ الأنانية تملي عَلَى ابنتها التخصص الذي تريده هي لا ما تريده ابنتها.

وهذه الأمُّ الأنانية تقدم مصلحتها عَلَى مصلحة ابنتها، فهي لا تربيها عَلَى الاستعداد للحياة الزَّوْجيَّة، أو تشجعها عَلَى ذلك، وإنَّما تكره لها الزواج، وتزين لها الدراسة والعمل، إما لتفتخر بها، أو لتستفيد من أموالها، ولو أدى ذلك إلى فساد حياتها الزَّوْجيَّة لو حصلت فِي المستقبل.

وهذه الأمُّ الأنانية لا يهمها أين تدرس ابنتها، هل فِي مكان مختلط بالرجال أم لا!.

ولا يهمها مدى موافقة التخصص الذي تدرسه ابنتها لأنوثتها أم لا!.

ولا يهمها مكان التوظيف المستقبلي لهذا التخصص، أهو موافق لرضى اللَّه أم لا!.

لأن هذه الأمَّ الأنانية لا تراعي شرع اللَّه فِي تربيتها لابنتها، وإنَّما يهمها التفاخر بابنتها فِي مجالس النساء، وأمام العائلة.

أما امرأة عمران فكانت بخلاف ذلك كله، ولذلك كانت نتيجة دعائها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعْنَاهُ: وَأَنْبَتَهَا رَبُّهَا فِي غِذَائِهِ وَرِزْقِهِ نَبَاتًا حَسَنًا حَتَّى تَمَّتْ فَكَمُلَتِ امْرَأَةً بَالِغَةً تَامَّةً». (جامع البيان ٥/٣٤٥).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً، أَيْ جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيجًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ، وَقَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ العلم والخير والدين». (تفسير ابن كثير ٢/٢٩).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها». (تفسير السعدي ٩٦٦).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمَعْنَى: وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً: أَنْشَأَهَا إِنْشَاءً صَالِحًا، وَذَلِكَ فِي الْخُلُقِ

وَنَزَاهَةِ الْبَاطِنِ، فَشُبِّهَ إِنْشَاؤُهَا وَشَبَابُهَا بِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ الْغَضِّ». ﴿التحرير والتنوير ٣/٢٣٥﴾.

فهل تتمنين لابنتكِ أن ينبتها اللّه نباتًا حسنًا؟.

وهل أخذت بأسباب حصول ذلك؟.

أسأل اللّه أن ينبت ابنتكِ وبنات الصالحين والصالحات نباتًا حسنًا وأن يصلح قلوبهنَّ.

(٥) مريم تتربى فِي بيت النبوة

مِن مِنَّة اللَّه عَلَى الفتاة أن تتربى فِي بيت صالح، بين أبوين صالحين، أو أن يهيئ اللَّه لها من يربيها من الصغر عَلَى طاعة اللَّه من إخوانها، أو أخواتها، أو من يسخره اللَّه لها.

وهذه النعمة إنَّما تستفيد منها الفتاة العاقلة، الفطنة، ذات السريرة النقية، الصادقة، الصَّالحة.

وقد رأينا فِي هذا الزمان من تتوفر لها هذه النِّعمة بتوفيق من اللَّه، لكنها تتمرد عليها بحجة الحرية التي تدعو إليها الأفكار النسوية، ودعاة إفساد الفتيات، ثم تكون النتيجة المرة: ضياع الفتاة، وخسارة هذه النعمة، لعدم شكرها.

وقد رأينا من ندمت عَلَى سلوكها هذا المسلك، بعد أن رأت الكارثة التي حلت بها بتمردها عَلَى تربية أبويها الصالحين.

أما الفتاة العاقلة الفطنة والتي استفادت من البيئة الصَّالحة التي هيئها اللَّه لها، فهي تعيش فِي سعادة لا يعرفها إلا من تذوقها.

ومريم ابنة عمران عليها السلام، ممن هيأ اللَّه لها البيئة الصَّالحة لتتربى فيها، فهي من آل بيت اصطفاهم اللَّه عَلَى العالمين، وتربت فِي بيت نبي من أنبياء اللَّه، وكانت بين قوم صالحين.

وقدر اللَّه لها أن تولد يتيمة، واليتم نعمة أخرى من نعم اللَّه عَلَى الفتاة، يَعرفها من دَرَسَ سيرة الأيتام ورعاية اللَّه لهم.

وتأملي أختي الكريمة قول اللَّه تعالى فِي تعداد نعمه عَلَى نبينا محمد ﷺ حيث قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦].

وحث النبي ﷺ عَلَى كفالة اليتيم، وبين فضلها وأجرها فِي الآخرة فقال: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَقَالَ بإصبعيه السبابة والوسطى. {رواه البخاري}.

فهذا الثواب العظيم فِي كفالة اليتيم، يدل عَلَى عظم المسؤولية فِي هذه الكفالة، وأن الكفالة لا تقتصر عَلَى بضعة دنانير يقدمها الكفيل لجهة خيرية تجمع

الأموال للأيتام، ثم لا يدري عن اليتيم شيئا.

إنَّ الكفالة التي جُعل ثوابها الجنَّة برفقة النبي ﷺ شأنها أعظم من ذلك بكثير، فالكفالة هي التَّربية والرِّعاية ومتابعة مصالح اليتيم والقيام عَلَى أمواله وتنميتها والمحافظة عليها والإنفاق عَلَى اليتيم إن لزم الأمر.

وهذا المعنى كان واضحًا عند الصالحين فِي زمن مريم ابنة عمران، ولذلك تنافسوا عَلَى كفالتها، أيهم يفوز بهذا الثَّواب والأجر العظيم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا أَقْلَامُهُمْ فَسِهَامُهُمُ الَّتِي اسْتَهَمَ بِهَا الْمُتْسَهِمُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى كَفَالَةِ مَرْيَمَ». {جامع البيان ٥/٤٠٣}.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجمهور العلماء عَلَى أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها». {المحرر الوجيز ١/٤٣٥}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، وَذَلِكَ لِرَغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ». {تفسير ابن كثير ٢/٣٥}.

وكانت النتيجة ما اختاره اللَّه لها من أن تتربى مريم فِي بيت نبي من أنبيائه، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]..

قال أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «(وَكَفَّلَهَا): أي ضمها إلى زكريا، لأن الكفالة فِي أصل معناها الضم، وقد ضمها إليه لتكون فِي رعايته، وكان ذلك بإرادة اللَّه، ونتيجة اقتراع كان بينهم، ذلك بأن الصالحين من قومها تنازعوا فيمن يكفلها، فاقترعوا فكانت القرعة لنبي اللَّه زكريا، ولذا قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران: ٤٤]، فكانت تلك القديسة الطاهرة فِي رعاية نبي، وتربت فِي مهد النبوة، لتكون هي وابنها آية للعالمين». (زهرة التفاسير ٣/١٢٠٠).

وكفالة نبي اللَّه زكريا لمريم جعلها تتربى فِي بيت النبوة، وتأخذ من أخلاق وعبادة النبي الكريم زكريا عليه الصلاة والسلام.

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «(﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ عُدَّ هَذَا فِي فَضَائِلِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَزِيدُ فَضْلَهَا لِأَنَّ أَبَا التَّرْبِيَةِ يُكْسِبُ خُلُقَهُ وَصَلَاحَهُ مُرَبَّاهُ». (التحرير والتنوير ٣/٢٣٥).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر اللَّه لها زكريا كافلا. وهذا من منة اللَّه عَلَى العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين». (تيسير الكريم الرحمن ٩٦٦).

وهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا تسابق القوم فِي كفالة مريم؟.

والجواب: لأنهم أدركوا جميعا أن الفتاة بحاجة إلى رجل يحميها ويرعاها، ولو كانت هذه الفتاة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَهَذِهِ مَرْيَمُ احْتَاجَتْ إِلَى مَنْ يَكْفُلُهَا وَيَحْضُنُهَا حَتَّى أَسْرَعُوا إِلَى كَفَالَتِهَا فَكَيْفَ غَيْرُهَا مِنَ النِّسَاءِ وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ بِالتَّجْرِبَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَحْتَاجُ مِنَ الْحِفْظِ وَالصِّيَانَةِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَكُلُّ مَا كَانَ أَسْتَرَ لَهَا وأصون كَانَ أَصْلَحَ لَهَا. وَلِهَذَا كَانَ لِبَاسُهَا الْمَشْرُوعُ لِبَاسًا يَسْتُرُهَا وَلُعِنَ مَنْ يَلْبَسُ منهن لِبَاسَ الرِّجَالِ». (مجموع الفتاوى ١٢٩/٣٤).

من واجب الرجل تفقد أحوال الفتاة التي تحت رعايته، ويستفسر عما يشكل عليه من أمرها، كما فعل زكريا مع مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ. قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه اللَّه إليها، وكرامة أكرمها اللَّه بها، فيقول لها زكريا ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ فضلا وإحسانا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حسبان من العبد ولا كسب». (تفسير السعدي ١٢٩).

وقال أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «عجب نبي اللَّه من هذا الرزق، وما كان العجب إلا لأنه لَا يعرف لسببه، ولو كان يعرف أَنَّهَا هبات تأتيها ما ثار عجبه، ولقد كانت إجابتها إجابة الربانيين الأبرار؛ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾. أكدت أنه رزق اللَّه، ولذلك أتت بالضمير، ثم أكدت ذلك بما يزيل العجب، فقالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي أن رزق اللَّه كثير غير محدود بحد،

ولا مقدر بقدر؛ ولذا لَا يحده الحساب، ولا تجري عليه الأعداد التي تنتهي». {زهرة التفاسير ١٢٠١/٣}.

ولا ينبغي للفتاة أن تتضجر من تفقد وليها لأحوالها، بل الواجب عليها أن تفرح بذلك، لأن هذا التفقد دليل عَلَى اهتمام ورعاية الولي لها.

ولكن ما الرزق الذي كان يأتي مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؟.

(٦) قالت هو من عند اللّه

من المسائل التي تشغل قلب المرأة، مسألة الرزق، وخاصة فِي هذا الزمان. مع أنَّ اللَّه ﷻ بينها فِي كتابه بشكل واضح، فقال: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦] ، ومع ذلك فقد يضعف توكل المرأة عَلَى اللَّه، وتنتابها المخاوف من الفقر والعوز، لذلك جاءت الآيات الكثيرة التي تطمئن قلب المرأة بأن الرزق من اللَّه وأن اللَّه رازقها، وأن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب.

وفي قصة مريم عبرة لكل فتاة فِي أن طاعتها للَّه لا تمنع رزقها، بل تزيد فِي رزقها، فالله يرزق من يشاء بغير حساب.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

لقد تعجّب زكريا وجود الطعام عند مريم، مع أنه لم يُحضره لها، فسألها عنه، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فانشغل كثير من المفسرين بمعرفة نوع الطعام الذي أكرمها اللَّه به، بينما العبرة التي تؤخذ من هذا الحدث وهذا الموقف لا نجدها فِي كثير من كتب المفسرين، إلا من وفقه اللَّه لذلك.

فمال كثير من المفسرين إلى أنَّ هذا الطعام مخالف للطبيعة، فيأتيها طعام الصيف وقت الشتاء، وطعام الشتاء وقت الصيف، ولكن الكرامة لا يلزم منها مغايرة الطبيعة فِي الطعام، وإنَّما الكرامة أنْ يأتيها طعام مناسب لها من غير أن تحضره بنفسها أو يحضره لها أحد، ولذلك تعجَّب زكريا من وجود رزق عندها كلما دخل عليها، وهي جالسة فِي مكانها لا تخرج، ولا يدخل عليها غيره!.

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ، معناه طعاما تتغذى به مما لم يعهده، ولا عرف كيف جلب إليها». (المحرر الوجيز ١/٤٢٦).

وقال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ كَانَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ. وَإِسْنَادُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ إِلَى اللّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَام مَعْهُودٌ فِي الْقَدِيم وَالْحَدِيثِ. قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ مَبْسُوطًا: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ سَائِغًا يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَهْمُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى عَنَاءٍ وَلَا ذَهَابٍ فِي الدِّفَاعِ عَنْ شَيْءٍ خِلَافَ الظَّاهِرِ، فَعَلَيْنَا أَلَّا نَخْرُجَ عَنْ سُنَّتِهِ وَلَا نُضِيفَ إِلَيْهِ حِكَايَاتٍ إِسْرَائِيلِيَّةً أَوْ غَيْرَ إِسْرَائِيلِيَّةٍ لِجَعْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ. وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ الرِّزْقِ مَا هُوَ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ فُضُولٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِفَهْمِ الْمَعْنَى وَلَا لِمَزِيدِ الْعِبْرَةِ، وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّ فِي بَيَانِهِ خَيْرًا لَنَا لَبَيَّنَهُ». (تفسير المنار ٢٤١/٣).

لقد قررت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي جوابها عَلَى نبي اللَّه زكريا ثلاثة أمور:

الأول: أنَّ الرزق من عند الله.

الثاني: أنَّ اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب.

الثالث: أنَّ الطعام يسمى رزقًا.

وفي هذا عبرة لكل فتاة لم تتزوج، ولكل امرأة متزوجة، ولكل امرأة مطلقة، ولعموم نساء المسلمين.

أما الفتاة التي لم تتزوج، فلتعلم أنَّ الزواج رزق مِنَ اللَّه يطلب بالأسباب الشرعية، والتي منها الدعاء، فتطلب الفتاة الزوج الصالح من اللَّه وتُلحُّ فِي الدعاء، والله سبحانه هو الرزاق.

وعلى الفتاة أن توقن أن المعصية لا تجلب رزقًا، وأن الطاعة لا تمنعه. فمَنْ ظنَّت أنَّ التزامها باللباس الشرعي كما أمر اللَّه فِي كتابه، وبيَّنه رسول اللَّه ﷺ فِي سنته يمنعها من الزواج، فقد أساءت الظنَّ باللَّه.

وكذلك الأمُّ التي تظن أن تَستّر ابنتها سيحرمها من الزواج، قد أساءت الظنَّ باللَّه.

وهل جاء الرزق لمريم وهي فِي محرابها إلا كرامة لها لطاعتها وعبادتها؟!.

فالتزامك بما أمر اللَّه من السَتر والحياء والعفَّة، لا يحرمك من الزواج ولا يؤخره عنك.

وأما المرأة المتزوجة فقد تصاب بلوثة أهل الجاهلية وهي ترك الإنجاب بحجة قلة الرزق. وقد نهى اللَّه عن هذا الفعل، ووعد الزوجين بالرزق فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ

إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١] ، ففي حال الفقر قدم رزق الزوجين عَلَى رزق المولود، وفي حال الخوف من الفقر قدم رزق المولود عَلَى رزق الزوجين.

وأما المرأة التي تختلف مع زوجها وتشعر أنَّه قد يطلقها بسبب كرهه لها أو غير ذلك، فقد طمأنها اللَّه ﷻ بالرزق ولو وقع الطلاق فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠] . قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر اللَّه تَعَالَى أَنَّهُمَا إِذَا تَفَرَّقَا فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيهِ عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه اللَّه مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا، وَيُعَوِّضَهَا عَنْهُ بِمَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ، وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً أَيْ وَاسْعَ الْفَضْلِ عَظِيمَ الْمَنِّ حكيما فِي جميع أفعاله وأقداره وشرعه». (تفسير ابن كثير ٢/٣٨٢).

فالرزق فِي هذه الآية أعم من أن يكون مالا، فقد يكون زواجا ترزق من خلاله بحياة زوجية جديدة، وسعادة جديدة، ومال وذرية.

فالطلاق لا يعني الفقر، ولا يلزم منه الفقر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ

ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣] قال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمُتَّقِي يَكُونُ دَائِمًا أَحْسَنَ حَالًا وَأَكْثَرَ احْتِمَالًا وَمَحَلًّا لِعِنَايَةِ اللّهِ تَعَالَى بِهِ، فَلَا يُؤْلِمُهُ الْفَقْرُ كَمَا يُؤْلِمُ الْفَاجِرَ، فَهُوَ يَجِدُ بِالتَّقْوَى مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضَيِّقٍ، وَيَجِدُ مِنْ عِنَايَةِ اللّهِ رِزْقًا غَيْرَ مُحْتَسَبٍ». {تفسير المنار ٢١٩/٢}.

وقد ترفض الفتاة الرجل الصالح بسبب فقره، فرد اللَّه عليها بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَغَّبَهُمُ اللَّهُ فِي التَّزْوِيجِ وَأَمَرَ بِهِ الْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ الْغِنَى، فَقَالَ ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ خَالِدٍ الْأَزْرَقُ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ عَنْ سَعِيدٍ ـ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ـ قال: بلغني أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ النِّكَاحِ يُنْجِزْ لَكُمْ مَا وعدكم من الغنى قال تَعَالَى: إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ

مِنْ فَضْلِهِ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: الْتَمِسُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ». {تفسير ابن كثير ٤٧/٦}.

لقد كان من تأثير إجابة مريم عليها السلام لنبي اللَّه زكريا عليه الصلاة والسلام، أن بادر زكريا بطلب الذرية من اللَّه، وهي رزق، فقال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]، فاستجاب له ربه سبحانه وتعالى فأرسل له الملائكة تبشره بالمولود فقال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

إنَّ إجابة مريم لنبي اللَّه زكريا بهذا الجواب، دليل عَلَى صلاحها ويقينها باللَّه ﷻ، وهكذا ينبغي للفتاة المسلمة، أن تتربى عَلَى الإيمان والثقة بوعد اللّه.

وإن مسارعة نبي اللَّه زكريا للدعاء وطلب الولد من اللَّه، وَهُوَ رزق، بعد أن سمع إجابة مريم دليل عَلَى أن الصالحين يسارعون فِي فعل الخير إذا ذكروا به،.

والذي نأمله من كل فتاة اليوم، ومن كل امرأة متزوجة، أو غير متزوجة، أن توقن أنَّ اللَّه هو الرزاق، فتطلب الرزق منه. كما قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ

ﱡٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَﱠ [العنكبوت: ١٦-١٧] ولا يلزم أن يكون الرزق مالًا نقديًا، بل قد يكون طعامًا، أو ذرية، أو زوجًا، أو قناعة فِي النفس، أو سعادة وراحة نفسية، أو صحة فِي البدن وعافية من اللَّه، أو غير ذلك.

الأمر الأخير الذي قررته مريم فِي جوابها لنبي اللَّه زكريا هو: أنَّ اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب.

قال أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي أنَّ رزق اللَّه كثير غير محدود بحد، ولا مقدر بقدر؛ ولذا لَا يحده الحساب، ولا تجري عليه الأعداد التي تنتهي». {زهرة التفاسير ١٢٠١/٣}.

فنسأل اللَّه من فضله العظيم، أن يرزقنا الجنة بغير حساب.

(٧) مريم ومحراب العبادة

مريم عليها السلام نشأت نشأة صالحة، لازمت فيها عَلَى العبادة والطاعة، حتى أَنَّهَا جعلت لنفسها محرابا خاصا تتعبد فيه وتخلو بنفسها فِي مناجاة للَّه رب العالمين.

وقد أشار اللَّه تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧] .

والمحراب: «هو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها». {تفسير السعدي ٩٦٦}.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «وَكَانَتْ تَتَعَبَّدُ بمَكَان تتخذه بهَا مِحْرَابًا، وَكَانَ زَكَرِيَّاءُ يَتَعَهَّدُ تَعَبُّدَهَا». {التحرير والتنوير ٢٣٦/٣}.

وجعلت محرابها الذي تتعبد فيه شرق بيت المقدس، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم: ١٦]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيِ اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ، وَذَهَبَتْ إِلَى شرق المسجد المقدس». {تفسير ابن كثير ٥/١٩٤}.

وإنَّما فعلت ذلك مريم لتتفرغ للعبادة بعيدًا عن النَّاس، فلا تنشغل بهم، ولا يشغلونها.

قال أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى أَنَّهَا اعتزلت النَّاس ونبذتهم، وانفردت لعبادة اللَّه وحده، لا تأنس إلا به، ولا يعمر قلبها إلا بذكره، والمعنى انفردت من أهلها {مَكَانًا شَرْقِيًّا}، أي انفردت من أهلها فِي مكان شرقي بيت المقدس الذي كان فيه محرابها، ومحراب كافلها زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان وراء هذا الانفراد أن اتخذت حجابا يحول بينهما». {زهرة التفاسير ٩/٤٦٢١}.

ولم تكتف مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ بالابتعاد المكاني عن النَّاس والانفراد، بل زادت عَلَى ذلك باتخاذ حجابا يحجبها عن النَّاس، لتتفرغ لعبادة ربها، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ [مريم: ١٦-١٧].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِ أَهْلِهَا سِتْرًا يَسْتُرُهَا عَنْهُمْ وَعَنِ النَّاس». {جامع البيان ١٥/٤٨٥}.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي اتخذته لتستتر به عن النَّاس لعبادتها». {المحرر الوجيز ٤/٩}.

وقَالَ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له فِي حالة الإخلاص والخضوع والذل للَّه تعالى». {تيسير الكريم الرحمن ٤٩١}.

ولذلك أختي الكريمة، إذا أردت أن تكوني من العابدات الصالحات، فعليكِ بالتأسي بمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وأولى خطوات التأسي بها: تخصيص مكان فِي بيتكِ لصلاتكِ وذكركِ وقراءتكِ للقرآن.

الخطوة الثانية: الابتعاد عن كل الشواغل التي تشغلكِ عن عبادتكِ أو تفسد عليكِ قلبكِ. ومن أخطر الشواغل الهاتف المحمول، فإذا قمت لعبادة ربك، فأغلقي هاتفكِ تمامًا حتى لا ينشغل القلب به.

فهذه خطوات تهيئة المكان للعبادة، بعدها عليك بخطوات تدريب النفس عَلَى العبادة تدريجيا، فإن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

ولذلك أنصحكِ أختي الكريمة بأمرين لتحققي أولى خطوات طريق العابدات الصالحات:

الأمر الأول: العناية بصلاتكِ فرضها ونفلها، فإن المحافظة عَلَى الفرض والنفل تنقلك إلى مرتبة محبة اللَّه لكِ للحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأعطينَّه، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأعيذنَّه، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يكره الموت وأنا أكره مساءته». {رواه البخاري}.

فطريق الولاية يبدأ من المحافظة عَلَى الفرائض ثم النوافل الملحقة بالفرائض.

وقد وسع اللَّه عليكِ فِي وقت الصلاة، ولم يلزمك بصلاة الجماعة فِي المسجد، فعودي نفسك عَلَى صلاة خاشعة متأنية، واختاري لها الوقت المناسب لكِ، فالخشوع ومناجاة اللَّه هي لب الصلاة.

ومن أهم النوافل التي تحافظين عليها: السنن الرواتب، تقول أُمّ حَبِيبَةَ ﵂: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ». قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (رواه مسلم).

والسنن الرواتب هي: أربع ركعات قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل صلاة الفجر.

ومن النوافل المهمة فِي حياتكِ لتكوني عابدة، صلاة الضحى. وهي صلاة الأوابين كما قال ﷺ: «لا يُحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى إلا أَوَّابٌ» .قَالَ: «وَهِيَ صَلاةُ الأَوَّابِينَ». (رواه ابن خزيمة فِي صحيحه).

وقد كانت أم المؤمنين عائشة الصديقة ﵂ بنت الصديق، حبيبة نبينا محمد ﷺ وزوجه فِي الجنة، المبرأة من فوق سبع سموات فِي قرآن يتلى إلى يوم القيامة، كانت تحافظ عَلَى صلاة الضحى؛ قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاس فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، وَمَا سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وَإِنِّي لأُسَبِّحُهَا. (رواه البخاري).

وأما أُسُّ عبادة الصالحين فهو قيام الليل، والذي قال عنه النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَام اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ». {رواه الترمذي وابن خزيمة}.

فهذا من أجل أعمال العابدات الصالحات. وقد حثَّ النبي ﷺ نساءه عَلَى قيام الليل بأكثر من طريقة، وفي أكثر من مناسبة، فمن ذلك:

حث النبي ﷺ النساء عَلَى قيام الليل عند نزول الفتن، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتِ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ». {رواه البخاري}.

وفي هذا إشارة إلى أهمية تربية الفتاة عَلَى قيام الليل فِي مواجهة فتن هذا الزمان.

كما حث النبي ﷺ المرأة عَلَى أن تتعاون مع زوجها عَلَى قيام الليل وتدعوه إلى ذلك، وتستجيب له إذا دعاها، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما قَالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ». {رواه أبو داود}.

فهذا هو الأمر الأول من أولى خطوات طريق

العبادة، متى ما سلكتيه وثبتِ عليه، فإنه بإذن اللَّه يجلب لك الخطوات الأخرى بيسر وسهولة.

أما الأمر الثاني من خطوات طريق العبادة فيتجلى فِي ضبط اللسان.

وضبط اللسان يتناول عدة أمور، منها: أن ينشغل بذكر اللَّه ﷻ.

فعَنْ يُسَيْرَةَ رضي الله عنها وَكَانَتْ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ، وَاعْقِدْنَ بِالأَنَامِلِ فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ، وَلا تَغْفُلْنَ فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ». (رواه أبو داود).

وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ رضي الله عنها قَالَتْ: أَتَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ؛ فَإِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ. فَقَالَ: «**كَبِّرِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاحْمَدِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَسَبِّحِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ مُلْجَمٍ مُسْرَجٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ رَقَبَةٍ**». (رواه ابن ماجه).

وهذا كما تلاحظين أختي الكريمة أجر عظيم فِي عمل يسير عَلَى من يسره اللَّه عليه، وَهُوَ ذكر اللَّه وتسبيحه وتهليله.

الأمر الآخر فِي ضبط اللسان، هو الابتعاد عن

ظلم النَّاس به. وأكثر من تظلمه المرأة بلسانها هو الزوج. ولذلك نهى رسول اللَّه ﷺ المرأة عن كفران العشير فقال: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ». {رواه مسلم}.

فأكثر سبب يدخل المرأة النَّار هو لسانها. بل ويحبط أعمالها الصَّالحة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ». {رواه أحمد}.

فلا تتحقق لك صفة العابدة إلا بالجمع بين الأمرين: التقرب إلى اللَّه بالأعمال الصَّالحة، وكف شرك عن النَّاس بكل الصور.

(٨) مريم العفيفة الطاهرة

مدح اللَّه ﷻ مريم فِي كتابه ووصفها بالعفة والطهر، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١] ، وقال ﷻ: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: ٤٢].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾ حَفِظَتْ، وَمَنَعَتْ فَرْجَهَا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِبَاحَتَهُ فِيهِ». (جامع البيان ١٦/٣٩٠)، «بِمَعْنَى: حَفِظَتْهُ مِنَ الرِّيبَةِ وَمَنَعَتْهُ مِنَ الْفُجُورِ». (جامع البيان ٦/٥٧٥).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها». (تفسير السعدي ٨٧٥).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْإِحْصَانُ: جَعْلُ الشَّيْءِ حَصِينًا، أَيْ لَا يُسْلَكُ إِلَيْهِ. وَمَعْنَاهُ: مَنَعَتْ فَرْجَهَا عَنِ الرِّجَالِ.». {التحرير والتنوير ٣٧٨/٢٨}.

إن العفَّة من أعظم أخلاق الفتاة، وهي المحافظة عَلَى العرض من أن يُدنَّس بأي صورة من الصور.

وفي قصة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ إشارات للوسائل العملية التي تعين كل فتاة للحفاظ عَلَى عفتها.

وأولى هذه الوسائل:

الانشغال بالعبادة فِي فترة الشباب، فمن شبَّ عَلَى شيءٍ شاب عليه.

ومريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ شغلت نفسها من بداية شبابها بالعبادة والطاعة، مما أحدث فِي نفسها الأُنس باللَّه، وانشغال القلب بذكره.

ومن انشغل قلبها باللَّه ترفعت عن سفاسف الأخلاق والتصرفات التي تدنس عرضها، وابتعدت عن مواطن إثارة الشهوات والغرائز.

ومن ذاقت لذة الأُنس باللَّه، لم تبحث عن الأُنس بغيره عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

الوسيلة الثانية:

الابتعاد عن كثرة الخلطة بالناس.

يقول تعالى مادحًا فعل مريم عليها السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦].

قَالَ ابن جرير الطبري رحمه الله: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ، حِينَ اعْتَزَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا، وَانْفَرَدَتْ عَنْهُمْ». {جامع البيان ١٥/٤٨٢}.

وقال أبو زهرة رحمه الله: «والمعنى أَنَّهَا اعتزلت النَّاس ونبذتهم، وانفردت لعبادة اللَّه وحده، لا تأنس إلا به، ولا يعمر قلبها إلا بذكره». {زهرة التفاسير ٩/٤٦٢١}.

واعتزال مريم عليها السلام للناس أورثها الحياء فِي القلب، والتفرغ لعبادة اللَّه، والابتعاد عن كثرة اللغو والحديث الذي لا ينفع.

ولذلك كان العرب قديما يخصصون مكانًا للفتاة إذا بلغت، تعتزل فيه النَّاس، وتقل خلطتها بهم، لينموا الحياء عندها ويزداد، حتى ضرب بها المثل فِي الحياء، وجعل حياؤها مقياسًا بين النَّاس، حتى قال الصحابة فِي

وصف حياء النبي ﷺ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا. {رواه البخاري}.

فالفتاة العفيفة تحافظ عَلَى عفتها بصيانة السور العظيم المحيط بالعفة وَهُوَ الحياء، الذي إذا انهدم جزء منه تأثرت العفة بمقدار ما سقط من سور الحياء.

قَالَ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاس مِنْ كَلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». {رواه البخاري}.

وحياة الفتاة اليوم فِي ميادين الدراسة المختلطة، والأعمال المختلطة، وجرأتها عَلَى مزاحمة الرجال يضعف من سور حيائها المحيط بعفتها.

فمن خافت عَلَى حيائها فعلت كما فعلت البنتين الصالحتين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: ٢٣].

إن أول علامة ميزت البنتين هي عدم مزاحمتهما للرجال فِي السقي. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ لما وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا، وَكَانَ لَهَا بئر يرده رِعَاءُ الشَّاءِ

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أَيْ جَمَاعَةً يَسْقُونَ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أَيْ تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرِدَ مَعَ غَنَمِ أُولَئِكَ الرِّعَاءِ لِئَلَّا يُؤْذَيَا، فَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أَيْ مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرِدَانِ مَعَ هَؤُلَاءِ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أَيْ لَا يَحْصُلُ لَنَا سَقْيٌ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى». {تفسير ابن كثير ٦/٢٠٤}.

وانخراط الفتاة اليوم فِي مجموعات التواصل المختلطة، ومتابعة مشاهير الرجال فِي وسائل التواصل، تظهر بصماته عَلَى قلبها وحيائها.

الوسيلة الثالثة:

السَّتر.

حرصت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى الستر فِي حياتها، فخصصت لها مكانًا خاصًا لعبادتها، وسترته بحجاب يسترها من النَّاس. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦-١٧].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ: فَاتَّخَذَتْ

مِنْ دُونِ أَهْلِهَا سِتْرًا يَسْتُرُهَا عَنْهُمْ وَعَنِ النَّاس». {جامع البيان ١٥/٤٨٥}.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي اتخذته لتستتر به عن النَّاس لعبادتها». {المحرر الوجيز ٤/٩}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيِ اسْتَتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ». {تفسير ابن كثير ٥/١٩٤}.

السَّتر: هو السور الأعظم المحيط بسور الحياء والعفة، الذي إذا انخرم، انخرم الحياء معه مباشرة، وضعف بمقدار ما تأثر سور الستر فِي حياة الفتاة.

وإذا كانت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ قد سترت نفسها عن أعين النَّاس عامة من أجل صيانة قلبها من الرياء، وقصد النَّاس فِي عبادتها، فهي كذلك قد سترت نفسها عن كل رجل لا يحل له النظر إليها.

ومن سترت نفسها بحجاب يمنع رؤية أهلها لها، وهي فِي مكانها تصلي، وتذكر اللَّه، وتتعبد له، حَرِيَّة أن تستر جسدها إذا خرجت من محرابها لأي سبب من الأسباب.

إن الفتاة العفيفة تُعرف أولى خطوات عفتها من لباسها الدال عَلَى مستوى حيائها، ومن طريقة مشيتها وتصرفاتها فِي الطرق العامة.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: ٢٥] قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْمَعْنَى: أَنَّهَا مُسْتَحْيِيَةٌ فِي مَشْيِهَا، أَيْ تَمْشِي غَيْرَ مُتَبَخْتِرَةٍ وَلَا مُتَثَنِّيَةٍ وَلَا مُظْهِرَةٍ زِينَةً». (التحرير والتنوير ٢٠/١٠٣).

ولا تنجح الفتاة فِي تحقيق هذه الوسيلة إلا بالامتثال لحديثين اثنين عظيمين:

الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا. قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاس .وَنِسَاءٌ كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا. وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كذا وكذا». (رواه مسلم).

والثاني: عَنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَسَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقُبْطِيَّةَ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلالَةً، إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا». (رواه أحمد).

وإني لأرجو من كل فتاة ترجو ما عند اللَّه والدار الآخرة أن تتفكر فِي هذين الحديثين، وتعرف معناهما بشكل واضح، ثم تنظر فِي لباسها ونفسها، ومدى ابتعادها عن المذكور فِي الحديثين.

الوسيلة الرابعة:

التحسس من اقتراب الرجال لها.

كانت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي محرابها تتعبد، إذ دخل عليها الملك فِي صورة رجل، ففزعت، وكانت ردة فعلها دليلًا عَلَى كمال عفتها.

قال تعالى: ﴿...فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٧-١٨].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَخَافَتْ مَرْيَمُ رَسُولَنَا، إِذْ تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، وَظَنَّتْهُ رَجُلًا يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا». {جامع البيان ١٥/٤٨٦}.

إن المرأة العفيفة لا تقترب جسديا من الرجال، ولو اقترب منها رجل بجسده لتحفزت وجمعت نفسها لئلا يمسها.

إن هذا الشعور، وهذه الحساسية من اقتراب

الرجال من المرأة دليل عَلَى عفتها.

وتنتقل هذه الحساسية من اقتراب الرجال جسديا، إلى اقترابهم معنويًا، فلما تشعر العفيفة أن رجلًا ليس من محارمها يتواصل معها عبر وسائل التواصل من غير ضرورة ولا حاجة، لابد أن تتحسس من ذلك.

أما فتح المجال للفتاة لتجالس الرجال عَلَى طاولة واحدة فِي الميادين العامة والخاصة، ولأي سبب من الأسباب التي يتعذر النَّاس بها اليوم، فإنه بداية الانحراف وانكسار الأسوار المحافظة عَلَى العفة، فالستر ينهدم، والحياء ينعدم، والعفة تنخرم، والقلب يفسد، والعبادة تصبح شكلا بلا روح.

فمن تأست بمريم عليها السلام، فلتراجع وسائل العفة هذه فِي حياتها.

(٩) اصطفاء اللَّه لمريم ابنة عمران

الله يصطفي من يشاء من عباده، من الملائكة ومن النَّاس، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥] ، ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣].

ومن جملة من اصطفاهم اللَّه ﷻ وفضلهم عَلَى العالمين؛ مريم ابنة عمران ﵍، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: ٤٢] .

قال ابن جرير الطبري ﵀: «اخْتَارَكِ وَاجْتَبَاكِ لِطَاعَتِهِ، وَمَا خَصَّكِ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ». ﴿جامع البيان ٥/٣٩٢﴾.

وقال ابن كثير ﵀: «هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ

لَهُمْ بِذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا أَيِ اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وطهارتها من الأكدار والوساوس، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِجَلَالَتِهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ». (تفسير ابن كثير ٢/٣٣).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها عَلَى سائر نساء العالمين، إما عَلَى عالمي زمانها، أو مطلقا، وإن شاركها أفراد من النساء فِي ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور». (تفسير السعدي ١٣٠).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَكَرَّرَ فِعْلُ (اصْطَفاكِ) لِأَنَّ الاصطفاء الأول اصطفاء ذَاتِيٌّ، وَهُوَ جَعْلُهَا مُنَزَّهَةً زَكِيَّةً، وَالثَّانِي بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ عَلَى الْغَيْرِ. فَلِذَلِكَ لَمْ يُعَدَّ الْأَوَّلُ إِلَى مُتَعَلِّقٍ. وَعُدِّيَ الثَّانِي. وَنِسَاءُ الْعَالَمِينَ نِسَاءُ زَمَانِهَا، أَوْ نِسَاءُ سَائِرِ الْأَزْمِنَةِ». (التحرير والتنوير ٣/٢٤٤).

فالاصطفاء الأول لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة التي كانت تتصف بها، وهذه صفات يمكن لكل فتاة طموحة محبة لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أن

تقتدي بها فيها؛ كالاقتداء بها فِي عبادتها وإخلاصها لله، والاقتداء بها فِي سترها وعفَّتها وطُهرها.

والله سبحانه وتعالى قد اصطفى هذه الأمة عَلَى سائر الأمم، فكل من آمن بالله وما أنزل عَلَى رسوله ﷺ داخل فِي هذا الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر: ٣٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ، ثُمَّ قسمهم إلى ثلاثة أنواع:

فقال تعالى: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ: وَهُوَ الْمُفَرِّطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ.

وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ: وَهُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ.

وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ: وَهُوَ الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ». {تفسير ابن كثير ٦/٤٨٤}.

فأنت أيتها الفتاة المؤمنة الطموحة، من أي المراتب الثلاث؟.

لقد فازت مريم بالرتبة الأولى وهي المسابقة إلى الخيرات لكثرة ملازمتها للعبادة، فاصطفاها اللَّه ﷻ.

فإذا أردت الفوز بمرتبة السابقين إلى الخيرات فطبقي ما قاله الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بيان الرتبة الثالثة، قال: «(فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: مَنْ يُقَصِّرُ فِي اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَلَوْ بِتَرْكِ بَعْضِ الْفَضَائِلِ.

وَالْمُقْتَصِدُ: مَنْ يَتْرُكُ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَيَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْقَاصِرَةِ عَلَى نَفْسِهِ.

وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى التَّقَرُّبِ بِالنَّوَافِلِ، وَالتَّكَمُّلِ بِالْفَضَائِلِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّأَدُّبِ وَالتَّأْدِيبِ، حَتَّى يَكُونَ إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ، فَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ شُهَدَاءِ اللّهِ وَالصِّدِّيقِينِ وَمَا قَبْلَهَا

دَرَجَةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ». (تفسير المنار ٣٦٩/١١).

أما الاصطفاء الثاني، وَهُوَ تفضيلها عَلَى نساء العالمين فقد جاء فِي حديث أَبِي مُوسَى ﵁ قَالَ: قال رسول اللَّه ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سائر الطعام». (رواه البخاري).

وعَنْ علي بن أبي طالب ﵁ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ». (رواه البخاري).

وعَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ». (رواه الترمذي).

فهذه أحاديث تدل عَلَى علو رتبة مريم ﵍ عَلَى نساء العالمين.

قال ابن بطال ﵀: «وقوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يدل عَلَى تفضيلها عَلَى جميع نساء الدنيا؛

لأن العالمين جمع عالم، ألا ترى أن اللَّه جعلها وابنها آية أن ولدت من غير فحل، وهذا شيء لم يخص به غيرها من نساء الدنيا وجاءها جبريل ولم يأت غيرها من النساء». {شرح صحيح البخاري ٤٨٥/٩}.

(١٠) مريم الصِّديقة

ترقت مريم فِي مراتب الإيمان حتى وصلت إلى مرتبة الصديقية، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: ٧٥]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَجَعَلَ غَايَةَ مَرْيَمَ الصِّدِّيقِيَّةَ، كَمَا جَعَلَ غَايَةَ الْمَسِيحِ الرِّسَالَةَ». {الجواب الصحيح ٣٤٩/٢}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَوْلُهُ ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أَيْ مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ». {تفسير ابن كثير ١٤٣/٣}.

والصديقية مرتبة لا تعلوها إلا مرتبة النبوة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ

ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فجاءت مرتبة الصديقية بعد مرتبة النبوة مباشرة.

«(والصديقية هِيَ كَمَال الإيمان بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول علمًا وَتَصْدِيقًا وقيامًا، فَهِيَ رَاجِعَة إِلَى نفس الْعلم فَكل من كَانَ أعْلَم بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول وأكمل تَصْدِيقًا لَهُ كَانَ أتم صديقية، فالصديقية شَجَرَة أصولها الْعلم وفروعها التَّصْدِيق وثمرتها الْعَمَل». (مفتاح دار السعادة ١/٨٠).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصديقية، هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح». (تيسير الكريم الرحمن ٢٤٠).

وبين ربنا سبحانه وتعالى الطريق الذي سلكته مريم حتى بلغت مرتبة الصديقية وهو:

١) التصديق بكلام اللَّه من غير شك،.

٢) التصديق بالكتب المنزلة.

٣) المداومة عَلَى الطاعة والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات اللَّه، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: المطيعين لله، المداومين عَلَى طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنَّها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل». (تفسير السعدي ٨٧٥).

ومرتبة الصديقية متاحة لكل من سلك طريقها من الرجال والنساء، وقد اشتهرت فِي هذه الأمة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، الصديقة بنت الصديق.

فكل فتاة وامرأة تريد التأسي بمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ وتسلك طريقها الذي سلكته لنيل مرتبة الصديقية فعليها بهذه الأمور:

١) العلم بما جاء به الرسول ﷺ مما أوحى اللَّه إليه من القرآن، ومن السنة المطهرة.

وهذا يلزم منه أن تقرأ المرأة القرآن وتتفهم معانيه ولو من كتب التفسير المختصرة، كتفسير السعدي، أو القرآن تدبر وعمل. وكلاهما متاح فِي الانترنت.

كما يلزمها أن تقرأ أحاديث النبي ﷺ وهي التطبيق العملي للقرآن والتوجيه النبوي للأمة، وخاصة الأحاديث التي خاطب بها النبي ﷺ المرأة.

ومن الكتب المقترحة كتاب رياض الصالحين للنووي، وكتاب الترغيب والترهيب للمنذري، وكتاب شرح عمدة المرأة.

٢) التصديق واليقين بما جاء به النبي ﷺ.

وهذا أمر قلبي تعرفه المرأة من نفسها، وعلامته أَنَّهَا إذا سمعت نصًا شرعيًا من كتاب اللَّه أو سنة رسوله يعارض ما تهواه، لم تعترض عليه بعقلها، ولا برأيها، ولا بحثت عن آراء توافق هواها، وإنَّما سلمت تسليما من غير اعتراض.

٣) العمل بمقتضى هذا العلم، وهي الثمرة.

وهذا الذي يغير حياة الفتاة والمرأة، وينقلها من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة التي لا يعرفها إلا من ذاقها.

٤) المداومة عَلَى الطاعة والعبادة.

وهذه المداومة هي علامة الثبات، وخاصة فِي زمن الفتن.

٥) التزام الصدق فِي الأقوال والأفعال والأحوال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالذي جاء بالصِّدق هو مَن شأنه الصِّدق فِي قوله وعمله وحاله، فالصِّدق: فِي هذه الثلاثة.

فالصِّدق فِي الأقوال: استواء اللِّسان عَلَى الأقوال، كاستواء السُّنبلة عَلَى ساقها.

والصِّدق فِي الأعمال: استواء الأفعال عَلَى الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس عَلَى الجسد.

والصِّدق فِي الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح عَلَى الإخلاص، واستفراغُ الوسع وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصِّدق.

وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدِّيقيَّته، ولذلك كان لأبي بكرٍ الصِّدِّيق ذروةُ سنام الصدِّيقيَّة حتى سمِّي «الصِّدِّيق» عَلَى الإطلاق. والصدِّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصِّدق: مرتبة الصدِّيقيَّة، وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمُرسِل». {مدارج السالكين ٢/٦٢٩}

وعلى المرأة أن تحذر من فساد إيمانها بالاستماع إلى الذين فِي قلوبهم مرض؛ المثيرين للشبهات، والداعين إلى الشهوات. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران: ٧-٨].

فنصيحتي لكل فتاة وامرأة تطلب الدَّرجات العلى عند اللَّه، أن تتحرى فيمن تسمع له، أو تقرأ له، فإن وسائل التواصل اليوم قد امتلأت بأصحاب الشهوات والشبهات، الذين يخاطبون المرأة بمعسول الكلام، لبث شبهاتهم، وجرها إلى شهواتهم.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

وأخطر ميل تميله المرأة بسببهم هو تكذيبها أو

شكها فِي نصوص الشرع وخاصة الأحاديث النبوية المتعلقة بالمرأة والتي كثيرا ما تثار حولها الشبهات.

وهذا الميل يؤثر فِي القلب فيحرمه من لذة الإيمان والطاعة، فكيف تصل الفتاة والمرأة بعدها إلى مرتبة الصديقية!.

(١١) بشارة مريم بعيسى

لمَّا تفرَّغت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ لعبادة ربِّها فِي محرابها فِي بيت المقدس، وابتعدت عن شواغل الدنيا وعن النَّاس، وآنست خلوتها بمناجاة اللَّه، أرسل اللَّه لها الملائكة تبشِّرها بحملها بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، آية من آيات اللَّه للعالمين.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالتَّبْشِيرُ إِخْبَارُ الْمَرْءِ بِمَا يَسُرُّهُ مِنْ خَبَرٍ». {جامع البيان ٥/٤٠٦}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِأَنْ سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ». {تفسير ابن كثير ٢/٣٦}.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ فتاة متزوجة تفرح إذا ظهر لها

أَنَّهَا حاملٌ أو بُشِّرت بالحمل من قبل الطبيبة المُختصَّة، وهذا موافقٌ لفطرة الأُمومة التي فُطرت عليها المرأة.

وهذه الفطرة لا توجد إلا عند المرأة، لا توجد عند الرجل ولا يمكن أن يعرفها أو يتذوَّقها، لأنَّ اللَّه قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلا يُتصوَّرُ أنَّ الرجل يحمل ويلد، لأن اللَّه لم يخلقه لهذا، فما يزعمه المنتكسون عن الفطرة من دعوى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة تُكذِّبه الفطرة التي لا يمكن لعاقل أن ينكرها.

ولكن كيف بَشَّرت الملائكة مريم بالحمل؟ وهل فرحت بهذه البشارة كما تفرح بها كلُّ فتاة تُبشَّر بمولودها الأَوَّل؟.

لقد كانت مريم فِي خلوتها تتعبَّد اللَّه فِي محرابها، بعيدًا عن النَّاس، فتفاجأت بدخول رجل عليها كامل الخلقة، فخافت عَلَى نفسها، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٦-١٨].

فكانت أوَّل ردَّة فعلها الاستعاذة باللَّه من هذا الرجل الداخل عليها فِي خلوتها وتذكيرها إيَّاه بتقوى اللَّه والابتعاد عنها.

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِأَنَّهَا حَسِبَتْ أَنَّهُ بَشَرٌ اخْتَبَأَ لَهَا لِيُرَاوِدَهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَبَادَرَتْهُ بِالتَّعَوُّذِ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهَا مُبَادَرَةً بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَا تَوَهَّمَتْهُ مِنْ قَصْدِهِ الَّذِي هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ أَمْثَالِهِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ». {التحير والتنوير ١٦/٨٠}.

وهذا التصرُّف منها موافقٌ لفطرة الفتاة العفيفة الطاهرة، التي لا تأمن عَلَى نفسها من دخول رجل غريب عليها فِي خلوة، إذ لا ثالث لهما إلَّا الشيطان.

وقد قال ﷺ: «أَلا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ». {رواه الترمذي}.

قال الملا علي القارئ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمَعْنَى يَكُونُ الشَّيْطَانُ مَعَهُمَا يُهَيِّجُ شَهْوَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا حَتَّى يُلْقِيَهُمَا فِي الزِّنَا». {مرقاة المفاتيح ٥/٢٠٥٦}.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ» سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يَرْغَبُ إِلَى الْمَرْأَةِ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ الْمَيْلِ إِلَيْهَا لِمَا

رُكِّبَ فِيهِ مِنْ شَهْوَةِ النِّكَاحِ، وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ تَرْغَبُ إِلَى الرَّجُلِ لِذَلِكَ فَمَعَ ذَلِكَ يَجِدُ الشَّيْطَانُ السَّبِيلَ إِلَى إِثَارَةِ شَهْوَةِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ فَتَقَعُ الْمَعْصِيَةُ». {نيل الأوطار ٣٦١/٨}.

وما يقال اليوم من أنَّ الفتاة الواثقة من نفسها لا يُخاف عليها من جلوسها مع الشباب، واختلاطها معهم فِي الجامعات أو فِي ميادين العمل، كلام يَعرف باطله مَن تكلَّم به قبل مَن سمعه منه.

إنَّ الفتاة التي لا تفزع إذا اختلت برجل غريب عنها كما فزعت مريم عليها السلام، هي فتاة جاهلة بخطورة الخلوة برجلٍ غريب، أو أَنَّهَا مفتونة بهذا الغريب، أو أغواها الشيطان وزين لها الحرام.

أمَّا مريم عليها السلام فإنَّها بادرت بتذكير الرجل باللَّه، وبتقوى اللَّه، إذ لا حيلة لها إلَّا ذاك، ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم: ١٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «تَقُولُ: أَسْتَجِيرُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ أَنْ تَنَالَ مِنِّي مَا حَرَّمَهُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ ذَا تَقْوًى لَهُ تَتَّقِي مَحَارِمَهُ، وَتَجْتَنِب مَعَاصِيهِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ لِلَّهِ تَقِيًّا، فَإِنَّهُ يَجْتَنِبُ ذَلِكَ». {جامع البيان ٤٨٧/١٥}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ إِنْ كُنْتَ تخاف اللَّه، تذكيرًا لَهُ بِاللَّهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ، فَالْأَسْهَلِ، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». {تفسير ابن كثير ٥/١٩٥}.

فلمَّا رأى جبريل منها هذا الفزع طمأن قلبها بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: ١٩].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلمَّا رأى جبريل منها الروع والخيفة قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي إنَّما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة». {تفسير السعدي ٤٩١}.

ولكنَّ مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ لم تفرح ببشارة الملائكة لها بحملها بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنَّما تعجبت أشد العجب من هذه البشارة، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَمُ مِنْ هَذَا وَقَالَتْ: كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ أَيْ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ

هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي، وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ، وَلِهَذَا قَالَتْ: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وَالْبَغِيُّ هِيَ الزَّانِيَةُ». {تفسير ابن كثير ١٩٥/٥}.

وتعجُّبُ مريم عليها السلام فِي محلِّه فِي الوضع الطبيعي فِي الحياة، وَهُوَ أنَّ حمل الفتاة لا يكون إلا باتصالها برجل يعاشرها، بالحلال أو بالحرام، ولكنَّ اللَّه عز وجل جعل حمل مريم آية من آياته للعالمين.

(١٢) حمل مريم بعيسى آية من آيات اللّه

لمَّا تعجَّبت مريم عليها السلام من حملها بعيسى عليه السلام من غير مسيسٍ من البشر، جاءها الجواب الإلهي الذي يزيل هذا الإشكال الذي وقع فِي نفسها، ويُبيِّن قدرة اللَّه تعالى عَلَى كل شيء، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧] ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢٠-٢١].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعْنِي: هَكَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْكِ وَلَدًا لَكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّكِ بِشَرٌ، فَيَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَعِبْرَةً، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَيَصْنَعُ مَا يُرِيدُ». {جامع البيان ٥/٤١٥}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَقُولُ: كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَلَسْتُ بَغِيًّا حَاشَا لِلَّهِ؟ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَوَابِ ذلك السُّؤَالِ: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] أَيْ هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ،». (تفسير ابن كثير ٣٦/٢).

فالله جلَّ فِي علاه لا يُعجزه شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وهذه حقيقة يجب أن تستقر فِي قلب كلِّ مسلم، وتتذكَّرها كلُّ فتاة عَلَى وجه الخصوص، لأنَّ أمنيات الفتيات كثيرة، وتشعر الفتاة أَنَّهَا ضعيفة لا تستطيع تحقيق أُمنياتها، وخاصة ما يتعلق منها بموضوع الزواج والإنجاب وتكوين الأسرة.

فإذا غابت هذه الحقيقة عن قلب الفتاة، قلَّ لجوؤها إلى الدعاء والطلب من العظيم جلَّ فِي علاه. وإذا دعت، دعت وهي غير متيقنة بإجابة اللَّه لها، لأنَّها ترى أن ما تطلبه شبه مستحيل بالأسباب التي أمامها، وتنسى أن اللَّه عَلَى كلِّ شيء قدير.

والله سبحانه يقول فِي الإجابة عَلَى تساؤل مريم:

كيف يكون منها الولد والأسباب المادية المعروفة غير متوفرة، فلا هي متزوجة وحاشاها أن تكون بغيًا؟ فأجابها اللَّه بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] .نعم هو هيِّن عَلَى اللَّه، فلا ترددي أختي الكريمة فِي اللجوء إلى اللَّه بالدعاء والتضرع والمناجاة فِي قضاء حوائجك وأُمنياتك مهما كانت مستحيلة فِي نظرك، فالأمر هيِّن عَلَى اللَّه سبحانه وتعالى، وَهُوَ من يُدبِّر الأمر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] تدلُّ عَلَى كمال قدرة اللَّه تعالى وَعَلَى أن الأسباب جميعها لا تستقلُّ بالتأثير وإنَّما تأثيرها بتقدير اللَّه فيُري عبادَه خرقَ العوائد فِي بعض الأسباب العادية لئلَّا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مُقدِّرها ومُسبِّبها». (تفسير السعدي ٤٩١) .

وفي حمل مريم بعيسى من غير مسيس من البشر حِكم عظيمة، أشار إليها ربُّنا سبحانه بقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾ [مريم: ٢١]، فهذا الحمل فيه آية للناس، ورحمة لهم من اللَّه جلَّ فِي عُلاه.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعْنِي: هَكَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْكِ وَلَدًا لَكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّكِ بِشَرٌ، فَيَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَعِبْرَةً، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَيَصْنَعُ مَا يُرِيدُ، فَيُعْطِي الْوَلَدَ مَنْ شَاءَ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ وَمِنْ فَحْلٍ، وَيَحْرِمُ ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ بَعْلٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ خَلْقُ شَيْءٍ أَرَادَ خَلْقَهُ، إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَأْمُرَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا مَا أَرَادَ، فَيَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَيَكُونُ مَا شَاءَ مِمَّا يَشَاءُ، وَكَيْفَ شَاءَ». (جامع البيان ٥/٤١٥).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمُ الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذُّرِّيَّةِ مَنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى، فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ». (تفسير ابن كثير ٥/١٩٥).

فهذه آية تدلُّ عَلَى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وحُجَّة عَلَى المُعاندين والمُعرضين عن دين اللَّه، الناكرين لعظمة الله. قال ابن جرير

الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: وَكَيْ نَجْعَلَ الْغُلَامَ الَّذِي نَهَبُهُ لَكِ عَلَامَةً وَحُجَّةً عَلَى خَلْقِي أَهِبُهُ لَكِ». {جامع البيان ٤٨٩/١٥}.

وفي قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] بيان من اللَّه ﷻ أن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مخلوقٌ وليس خالقًا. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصرَّح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَفْعَلُ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ هَاهُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لِئَلَّا يُبقي لمبطل شُبْهَةً». {تفسير ابن كثير ٣٦/٢}.

وحمل مريم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما أنه آية للناس، فهو رحمة لهم من اللَّه جلَّ فِي عُلاه، قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١]،.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ولنجعله رحمة مِنَّا به وبوالدتِه وبالناس:

أمَّا رحمة اللَّه به: فلِمَا خصَّه اللَّه بوحيه ومَنَّ عليه بما مَنَّ به عَلَى أُولي العزم.

وأمَّا رحمته بوالدته: فلِمَا حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة.

وأمَّا رحمته بالناس: فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة». {تفسير السعدي ٤٩١}.

وهكذا بعض الأمور لا تتجلَّى فيها الرحمة مِن أوَّل نظرة، ولكن بعد التأمُّل وإعادة النظر إلى مآلات الأمور تتجلَّى الرحمة بكلِّ معانيها.

فلمَّا قيل لمريم: هذه بشارة من ربِّكِ أنَّكِ تحملين من غير زوج، لم تدرك معاني البشارة فِي الحمل من أوَّل وَهلة، ولكنها أدركتها لمَّا رأت نبوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهل هناك بشارة لفتاة أعظم من أن يقال لها: إنك ستلدين نبيًا من أولي العزم من الرسل، يُخرج اللَّه به النَّاس من الظلمات إلى النور، ويكون له شأنٌ عظيمٌ فِي الدنيا والآخرة؟!.

أدركت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ رحمة اللَّه فِي خِفَّة حملها، وفي يُسر ولادتها، وفي الرِّزق الذي ساقه اللَّه لها بهزِّ النخلة التي يعجز عن هزِّها الرجال الأقوياء، وباختيار اللَّه لمكان ولادتها الذي جاورَ النهرَ، فلا تحتاج إلى عناء البحث عن الماء وإحضاره، ولا يخفى عليكِ أختي

الكريمة حاجةُ النفساء إلى الماء، لها ولوليدها.

أدركت مريم عليها السلام الرحمة فِي الأمان الذي شعرت به لما قيل لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

أدركت مريم عليها السلام الرحمة فِي عون اللَّه لها فِي مواجهة قومها عندما أنطق اللَّه وليدها الرضيع فقال لهم: ﴿...إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

أدركت مريم الرحمة فِي بِرِّ ابنها عيسى عليه السلام وعنايته بها.

لقد خافت مريم عليها السلام عَلَى نفسها من جبريل لمَّا جاءها فِي صورة رجل كامل الخِلقة، واستنكرت أن تحمل من غير مسيس، وتمنَّت الموت لمَّا ثقلَ حملُها، ثمَّ أدركتها رحمة اللَّه، فأبصرت جوانب الرحمة التي لازمتها من بداية البشارة إلى أن توفاها اللَّه عز وجل.

وأنت أَيتها الفتاة المؤمنة، تَلمَّسي رحمة اللَّه بك والتي تحيط بك من كلِّ جانب.

فمِن رحمة اللَّه بكِ أن جعلكِ من أُمَّة الإسلام، وانظري إلى ضياع بنات الكُفَّار فِي الغرب عَلَى وجه الخصوص، لا حقوق، ولا اهتمام، ولا رعاية، وتشريد من بعد البلوغ، وقلب فارغ إلَّا من الهوى، والرجال يعبثون بها من كلِّ جانب، ثُمَّ ترمى فِي هَمِّها وحُزنها وألمها وحيدةً تصارع فِي الحياة المريرة.

ومِن رحمة اللَّه بكِ أن جعلكِ من أبوينِ صالحَينِ يقومان برعايتكِ ونصحكِ وتوجيهكِ إلى الخير. وانظري حولك مِمَّن تعرفين من البنات اللاتي تربَّينَ فِي أحضان والدينِ بعيدينِ عن دين اللَّه، وكيف هي حياتهنَّ، تبرجٌ ظاهرٌ، ومعصيةٌ مُعلنةٌ، ولا هَمَّ لهنَّ إلا التمتُّع بالدنيا، إلا من هداها اللَّه وأخرجها من ظلمات أهلها إلى نور الهداية.

ومِن رحمة اللَّه بكِ، تلك الصَّديقة الصَّالحة التي سخَّرها اللَّه لكِ تعينكِ عَلَى فِعل الخير، وتُبعدُكِ عن فِعل الشرِّ، وتنصح لكِ بِصدق.

ومهما تلمَّسنا رحمة اللَّه فِي حياتنا فإننا سنقف أمام هذه الآية العظيمة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

(١٣) استسلام مريم لأمر الله

إن حقيقة إسلام المرأة تتجلَّى فِي مدى استسلامها لأمر اللَّه، وهذا هو المعيار الإيماني لكلِّ النَّاس. وهي من أكبر القضايا التي تدور حولها معاني الآيات والقصص فِي سورة البقرة.

وقد أثنى ربُّنا سبحانه وتعالى عَلَى نبيِّه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام باستسلامه له، فقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ﴾ امتثالًا لربِّه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخلاصًا وتوحيدًا، ومحبةً، وإنابة». {تفسير السعدي ٦٧}.

وإيمان المرأة يزداد أو ينقص بحسب استسلامها لأمر اللَّه وشرعه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ. وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ.

وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ. فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ؛ وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ». {مجموع الفتاوى ٩١/٣}.

وهذه الخلاصة التي ذكرها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تُلخِّص لكِ قضية الاستسلام وهي: أن تطيعي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَكِ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

ولمَّا تنظرينَ إلى قِصَّة مريمَ، وما أمرها اللَّه عَزَّ وَجَلَّ به وكتب عليها من حَمل بعيسى وهي العفيفةُ العذراء لم يمسَّها رجلٌ، لم تعترض بعد أن علمت أن هذا أمر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك قال اللَّه تعالى عنها: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جِبْرِيلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَ، أَنَّهَا اسْتَسْلَمَتْ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى». {تفسير ابن كثير ١٩٦/٥}.

ومريم عَلَيْهَا السَّلَامُ قبل أن تأتيها البشارة بعيسى كانت متفرِّغة لعبادةِ اللَّه فِي بيت المقدس، مُبتعدةً عن النَّاس، قدِ اتخذت من دونهم حجابًا، فجاءها الابتلاء بالحَمل فنجحت فيه، فارتفعت مكانتُها عند اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، حتى جعلها آية للعالمين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وامتحان اللَّه لعباده سُنَّةٌ ماضيةٌ لا تتبدلُّ ولا تتغيَّر، حتى الأنبياء يبتليهم اللَّه بأشدِّ أنواع البلاء، كلُّ ذلك لإظهار مدى استسلامهم لأمر اللَّه وشرعه وثباتهم عليه.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسْبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا جَاءَ

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَشَدُّ النَّاس بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ له فِي الْبَلاءِ»». (تفسير ابن كثير ٦/٢٣٧).

ومريم عليها السلام من الصالحات، ولِشدَّة إيمانها ابتلاها اللَّه بأمر عظيم، وَهُوَ الحمل من غير مسيس، فكيف ستواجه قومها وهي التي لم يعرف عنها إلا العبادة والتفرُّغ لها؟!.

وهذا هو الابتلاء الذي يُمحِّص اللَّه عز وجل به عباده بحسب إيمانهم، ليرى مدى استسلامهم لأمره وشرعه ومدى ثباتهم عليه.

وهذا الابتلاء الهدف منه بيان الصادق من الكاذب فِي ادعاء الإيمان. قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته لا تقتضي أنَّ كلَّ من قال: «إنه مؤمن» وادَّعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا فِي حالة يَسلمون فيها من الفِتن والمِحن، ولا يعرض لهم ما يُشوِّشُ عليهم إيمانَهم وفروعَه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميَّز الصادق من الكاذب، والمُحِقُّ مِنَ المُبطِلِ، ولكن سُنَّتَه وعادتَه فِي الأوَّلينَ وفي هذه الأُمَّة، أن يبتليَهم». (تفسير السعدي ٦٢٦).

ومِن رحمة اللَّه بعباده أنه يُعِينُ الصادقين عَلَى ما يبتليهم به، كما وقع فِي قِصَّة مَريمَ، فقد أعانها اللَّه فِي مواجهة قَومها بالآيات البيِّنَّات مِن نُطقِ عيسى وَهُوَ رضيعٌ، وكلامُه فِي المَهدِ.

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكنَّ اللَّهَ يلطُفُ بعباده المؤمنينَ فِي هذهِ الفتن ويُصبِّرُهُم عليها، ويثيبُهُم فيها، ولا يُلقيهم فِي فتنةٍ مُهلكةٍ مُضلَّةٍ تَذهبُ بدينِهم، بل تمرُّ عليهِم الفِتنُ وهم منها فِي عافية». (تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/٢١١).

إنَّ ادِّعاءَ الإيمان أمرٌ يسيرٌ؛ لأنه كلام، ولكن حقيقة الإيمان تتجلَّى فِي مدى الالتزام العمليّ المطلوب من المسلم والمسلمة، ولذلك أنكر اللَّه عَلَى الأعراب؛ كما فِي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحجرات: ١٤-١٦].

فالمسلمة المستسلمة لأمر اللَّه لا تجادل فِي أمر اللَّه وشرعه، وإنَّما تُنفِّذ ما أُمِرتْ به من غير جِدالٍ، لأن الآمر هو اللَّه جلَّ فِي عُلاه، وَهُوَ سبحانه لا يأمر إلا بما فيه خير العباد ومصالحهم.

فَفرْضُه عليكِ الحِجاب، ومَنعُكِ من السفر من غيرِ محرم، وتحريمُه عليكِ الخُلوةَ بالرجل الأجنبي، والاختلاطَ فِي ميادين العمل، وتحريمُه خروجَك مُتعطِّرةً، وأمرُه لكِ بطاعةِ زوجكِ، وخَلقُه لكِ أُنثى تختلفينَ عن الذَّكر، كلُّ ذلك وغيرُه مِن شرع اللَّه وأَمْره يحتاج منكِ إلى استسلام مُطلَق لا جدالَ فيه، لأن اللَّه لا يأمركِ بأمرٍ أو ينهاكِ عن أمرٍ إلا فيه مصلحتُكِ فِي الدنيا والآخرة، ولا يكفي أن تقولي صحيح وآمنت ثُمَّ لا تستسلمين له ولا تطبقين!.

لا يكفي أن تقولي إنكِ تُحبِّينَ اللهَ ورسولَه، ثُمَّ لا تَمتثلينَ لأمرِ اللّهِ ورسولِه فِي واقعِ حَياتكِ. أو أنكِ تُجادلينَ فِي أمر اللَّه ورسوله عندما يُخالفُ هواكِ، ويُخالفُ واقعَ المجتمعات؛ مَخافةً مِن ضَغط المجتمع عليكِ، واستنكارِهم عليكِ، أو استهزائهم بكِ. كلُّ هذا مخالفٌ للاستسلام لأمر اللَّه وشرعه.

وانظري إلى حال اليهود لمَّا عارضوا أمرَ اللَّه

بكثرة الجدل ماذا حلَّ بهم من التشديدِ عليهم فِي الدنيا؟!.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

وقال سبحانه عنهم كذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا

جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

وعدمُ الاستسلام لأمر اللَّه ﷻ وشرعه، والمجادلةُ فيه نابعٌ من الكِبْر المُسيطرِ عَلَى القَلب، وهذا من أخطر أنواع الكِبْر أن تتكبَّر المسلمةُ عَلَى اللَّه ﷻ وترفضَ شرعه بعقلها وهواها. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

وقـــال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

فيا مَن أحبَّت مريمَ عليها السلام ، واقتدت بها، إياكِ أن يستجرَّكِ أهلُ الأهواءِ إلى رفضِ شرع اللَّه والمجادلة فيه، بأي حُجَّةٍ من الحُجَجِ الواهية. وعليك بسيرة الصالحاتِ من أُمَّهاتِ المؤمنينَ والصحابيَّات ومَن سارَ عَلَى دَربهم مِن النِّساءِ الصالحات عبر تاريخ هذه الأُمَّة العظيم.

(١٤) ولادة عيسى ابن مريم

مرَّت مريم عليها السلام بمراحل الحمل التي تمرُّ بها كلُّ امرأة، وعاشت آلام الحمل بتقلباته المعروفة لدى النساء.

وكانت مريم عليها السلام قد ابتعدت عن النَّاس فِي مكان ناء، لِئلَّا يشعروا بحملها. قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢].

قال ابن جرير رحمه الله: «يَقُولُ: فَاعْتَزَلْتُ بِالَّذِي حَمَلْتَهُ، وَهُوَ عِيسَى، وَتَنَحَّتْ بِهِ عَنِ النَّاس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يَقُولُ: مَكَانًا نَائِيًا قَاصِيًا عَنِ النَّاس». (جامع البيان ١٥/٤٩١).

ابتعدت عن النَّاس حتى لا تبدأ المواجهة معهم قبل الولادة، لأن النَّاس لا يعلمون حقيقة هذا الحمل، وأنه آية من آيات اللَّه، حتى تلد ثُمَّ يقضي اللَّه فِي الأمر، فهي آمنت بكلام اللَّه وصدَّقت به، فلابدَّ أن يقضي اللَّه لها فِي أمرها مع النَّاس.

وهذا دليل حكمتها فِي التعامل مع هذا الحدث العظيم والصعب.

وفي هذا عبرة لكلِّ امرأة ألا تستعجل مواجهة النَّاس بما تمرُّ به من أحداث ليس لها فيها يَدٌ، وخاصَّة ما يتعلق بحياتها الزَّوْجيَّة، لعلَّ اللَّه أن يحدث أمرًا لم يخطر لها عَلَى بال.

ومثاله الطلاق، فقد تُطلَّق المرأة وهي غير راغبة فِي ذلك، فلا تستعجل فِي نشر الخبر بين النَّاس، وخاصَّة من لا يعنيهم الأمر فيشاع بين النَّاس أَنَّهَا مطلقة، وهذا قد يؤذيها نفسيًّا، وتتألَّم بسبب كلام النَّاس، ثُمَّ يُحدِثُ اللَّه لها أمرًا آخر فترجع إلى زوجها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: ١] وهذه الآية تعطي الأمل لكلِّ امرأة مُطلَّقة فِي أن ترجع إلى حياتها الزَّوْجيَّة أحسن مما كانت.

فلا تستعجلي أُختي الكريمة فِي مواجهة النَّاس بموضوعاتك الخاصة حتى لا يزيدوكِ هَمًّا عَلَى هَمِّكِ.

لقد اعتزلت مريم النَّاس وابتعدت عنهم كثيرًا لما دنى موعدُ الولادة، كما قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهَذَا الْمَكَانُ الْقَصِيُّ قَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾». (أضواء البيان ٣/٣٩١).

لقد اختار اللَّه لها مكانًا مباركًا يناسب وضعها القادم من الولادة والنفاس، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ يَقُولُ: وَضَمَمْنَاهُمَا وَصَيَّرْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ، يُقَالُ: أَوَى فُلَانٌ إِلَى مَوْضِعِ كَذَا، فَهُوَ يَأْوِي إِلَيْهِ. إِذَا صَارَ إِلَيْهِ؛ وَعَلَى مِثَالِ أَفْعَلْتُهُ، فَهُوَ يُؤْوِيهِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ يَعْنِي: إِلَى مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَلَى مَا حَوْلَهُ». (جامع البيان ١٧/٥٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ». (تفسير ابن كثير ٥/٤١٤).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى الآية أَنَّها من البقاع التي كملت خصالها، فهي أهلٌ أن يُستقر فيها،

وقد يمكن أن يستقر عَلَى الكمال فِي البقاع التي ماؤها آبار، فبيَّن بَعدُ أنَّ ماء هذه الربوة يرى معينًا جاريًا عَلَى وجه الأرض، قاله ابن عباس. وهذا كمال الكمال، و «المعين» الظاهر الجري للعَين، فالميم زائدة، وَهُوَ الذي يعاين جريه، لا كالبئر ونحوه». {المحرر الوجيز ٤/١٤٥}.

فاختيار اللَّه وتوفيقه لها فِي مكان الولادة آية مشعرة بأن التوفيق والعناية الربَّانية مصاحبة لها حتى بعد الولادة ومواجهة النَّاس.

ثم بدأت آلام المخاض وهي فِي هذا المكان البعيد عن النَّاس، وحيدة لا مُعينَ لها فِي الولادة، ولا تعرف من آلام الولادة وأهوالها قبل ذلك، ولا كيف تتصرَّف، فاستندت إلى جِذع نخلة فِي تلك الربوة، قال تعالى واصفًا حالها: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أيْ: فاضطرها وألجأها الطَّلق إلى جذع النَّخلة فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ». {تفسير ابن كثير ٥/١٩٧}.

كل امرأة جرَّبت الولادة تعرف آلام الطَّلق، ولكن ما مرَّت به مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ أصعب ممَّا مرت به كلُّ امرأة.

نعم تتفاوت آلام الطلق بين امرأة وأخرى، ولكنهنَّ

يشتركن فِي الفرح بعد الولادة بالمولود فينسينَ آلام الطَّلق، إلا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فإنها كانت تعاني من آلام نفسية تجمَّعت عليها مع آلام الطلق؛ ولادة من غير زواج، وتاريخ لأسرة كلها أهل اصطفاء من اللَّه وخير وصلاح، وكفيل من الأنبياء، ومجاورة لبيت المقدس، فكيف ستواجه النَّاس؟! وماذا ستقول لهم؟! وكيف سيصدقونها؟!.

ويدلك عَلَى هذه الآلام قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذُكِرَ أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ فِي حَالِ الطَّلْقِ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاس». {جامع البيان ١٥/٤٩٨}.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله تعالى إخبارًا عنها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاس أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خبرها، وبعد ما كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أَي قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أَي لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَتْ وَهِيَ

تَطْلِقُ مِنَ الْحَبَلِ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاس: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْكَرْبِ الَّذِي أَنَا فِيهِ وَالْحُزْنِ بِوِلَادَتِي الْمَوْلُودَ مِنْ غَيْرِ بَعْلٍ». (تفسير ابن كثير ١٩٨/٥).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْهَا: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، النِّسْيُ وَالنَّسْيُ بِالْكَسْرِ وَبِالْفَتْحِ: هُوَ مَا مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُطْرَحَ وَيُنْسَى لِحَقَارَتِهِ، كَخِرَقِ الْحَيْضِ، وَكَالْوَتَدِ وَالْعَصَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِذَا ارْتَحَلُوا عَنِ الدَّارِ قَوْلُهُمْ: انْظُرُوا أَنَسَاءَكُمْ. جَمْعُ نَسْيٍ أَيِ الْأَشْيَاءُ الْحَقِيرَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُتْرَكَ وَتُنْسَى كَالْعَصَا وَالْوَتَدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَقَوْلُهَا: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أَيْ شَيْئًا تَافِهًا حَقِيرًا مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُتْرَكَ وَيُنْسَى عَادَةً، وَقَوْلُهَا: ﴿مَّنسِيًّا﴾ تَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ التَّافِهَ الَّذِي مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُتْرَكَ وَيُنْسَى قَدْ نُسِيَ وَطُرِحَ بِالْفِعْلِ فَوُجِدَ فِيهِ النِّسْيَانُ الَّذِي هُوَ حَقُّهُ». (أضواء البيان ٣٩١/٣).

هل تخيلتِ الآن أُختي الكريمة حجمَ الابتلاء الذي مرَّت به مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ حتى تمنَّتِ الموت؟!.

هل استشعرتِ درجة العَفاف فِي نفس مريم حتى قالت ما قالت؟!.

إنَّ المرأة العفيفة تتمنَّى الموت عَلَى أن تخدش عِفَّتها.

إن العَفاف خلقٌ هو أعلى أخلاق المرأة، وإليه ترجع كثير من أخلاقها وترتبط به ارتباطًا وثيقًا لا تنفكُّ عنه أبدًا.

إن عفاف المرأة يتجلَّى فِي لباسها، وحيائها، ومشيها، وكلامها، ونظراتها، وزينتها، وقرارها فِي بيتها، وابتعادها عن الاختلاط بالرجال فِي كلِّ ميادين الحياة.

إن العَفاف هو جوهر حياة المرأة، ومتى ما خدش سقط الجوهر، وبقي الجسد بلا رُوح ولا رونق.

(١٥) لا تحزني يا مريم

إن عناية اللَّه بمريم لم تتوقَّف عند اختيار مكان الولادة، بل كانت تحيط بها من كلِّ جانب، فلمَّا قالت مريم: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، أنطق اللَّه من يواسيها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: الَّذِي نَادَاهَا ابْنُهَا عِيسَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ كِنَايَةِ ذِكْرِهِ أَقْرَبُ مِنْهُ مِنْ ذِكْرِ جَبْرَائِيلَ، فَرَدَّهُ عَلَى الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ أَوْلَى مِنْ رَدِّهِ عَلَى الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ مِنْهُ». (جامع البيان ١٥/٥٠٤).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَظْهَرُ الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي أَنَّ الَّذِي نَادَاهَا هُوَ ابْنُهَا عِيسَى، وَتَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَرِينَتَانِ:

الأُولَى: أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ إِلَّا

بِدَلِيلٍ صَارِفٍ عَنْ ذَلِكَ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ، وَأَقْرَبُ مَذْكُورٍ فِي الْآيَةِ هُوَ عِيسَى لَا جِبْرِيلُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يَعْنِي عِيسَى فَانْتَبَذَتْ بِهِ، أَيْ بِعِيسَى. ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فَالَّذِي يَظْهَرُ وَيَتَبَادَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ عِيسَى.

وَالْقَرِينَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا أَشَارَتْ إِلَى عِيسَى لِيُكَلِّمُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهَا: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾، وَإِشَارَتُهَا إِلَيْهِ لِيُكَلِّمُوهُ قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّهَا عَرَفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ لِنِدَائِهِ لَهَا عِنْدَمَا وَضَعَتْهُ». ﴿أضواء البيان ٣/٣٩٤﴾.

وذهب آخرون من العلماء إلى أن الذي نادها هو جبريل عليه السلام. وأيًا كان الصواب من القولين، فالعبرة من الحدث هي مرادنا من القصة.

فالذي ناداها من تحتها نهاها عن الحزن، والحزن: «عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب فِي الماضي». ﴿التعريفات للجرجاني ٨٦﴾.

وحزن مريم من النوع الأول وَهُوَ خوفها مما سيقال عنها عندما تلقى قومها وهي تحمل وليدها.

ولكن لماذا نهاها عن الحزن؟ وهل تملك ألَّا تحزن؟.

إن الوضع النفسي الذي كانت تمرُّ به مريم عليها السلام لم يكن أمرًا هينًا، ومع ذلك نهاها عن الحزن، مِمَّا يعني أن المرأة تستطيع أن تتجاوز الأحزان التي تعتريها بسبب ما تمرُّ به فِي الحياة من آلام، لأنه لو لم يكن لديها القدرة عَلَى تجاوز مرحلة الحزن لما أمرها بها.

مع أنَّ الحزن أمر طبيعي يحصل فِي النفس، ولكن يمكن معالجته. قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْحُزْنَ أَلَمٌ طَبِيعِيٌّ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ عِنْدَ فَوْتِ مَا يُحِبُّهُ، وَلَيْسَ أَمْرًا اخْتِيَارِيًّا؛ فَكَيْفَ نَهَى اللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ؟ قُلْنَا: إِنَّ النَّهْيَ عَنِ الْحُزْنِ يُرَادُ بِهِ النَّهْيُ عَنْ لَوَازِمِهِ الَّتِي يَفْعَلُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس مُخْتَارِينَ، فَتَكُونُ مُحَرِّكَةً لِذَلِكَ الْأَلَمِ وَمُجَدِّدَةً لَهُ وَمُبْعِدَةً أَمَدَ السَّلْوَى، وَالْأَمْرُ بِضِدِّهَا مِنْ تَكَلُّفِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَشْغَلُ النَّفْسَ وَتَصْرِفُهَا عَنِ التَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِيمَا حَزِنَتْ لِأَجْلِهِ احْتِسَابًا وَرِضَاءً مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ تَكُونُ بَدَنِيَّةً نَفْسِيَّةً، وَتَكُونُ نَفْسِيَّةً فَقَطْ أَوْ بَدَنِيَّةً فَقَطْ». {تفسير المنار ٦/٣٢٠}.

فالركون إلى الحزن قد يؤدي إلى أمور أخرى فيها

تجاوز لحدود اللَّه ﷻ، وقعود عن العمل الصالح، وانشغال الفكر بتوقعات سيئة تسيطر عَلَى القلب، وتزيد فِي الحزن، وهذا يؤدي إلى توقف التفكير فِي المخرج من الألم الذي تعيشه المرأة الحزينة.

ولذلك لم تأت الشريعة بمدح الحزن، بل جاءت بالنهي عنه، مع مراعاة الشريعة للطبيعة البشرية فِي تأثُّرها بآلامها وأحزانها. فأُجيز للمرأة أن تحدَّ عَلَى الميت من أقاربها ثلاثة أيام فقط، لترجع بعدها إلى حياتها الطبيعية وتمارس ما هو مطلوب منها شرعًا، وتفريغ القلب من الحزن المُشلِّ للعمل الصالح.

وكثير من الأحزان التي تُبتلى بها المرأة يمكن أن تتجاوزها بالنظر إلى الجوانب المشرقة من حولها مما وهبها اللَّه لها.

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]، إن الذي ناداها من تحتها ونهاها عن الحزن، لفت انتباهها إلى نعم اللَّه عليها، فقال لها: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ أَنَّ حَالَتَكَ حَالَةٌ جَدِيرَةٌ بِالْمَسَرَّةِ دُونَ الْحُزْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْكَرَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ». (التحرير والتنوير ٨٧/١٦).

ومن هذه الكرامة الإلهية لمريم هذا النهر الذي يجري بين يديها. قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَظْهَرُ الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي أَنَّ السَّرِيَّ فِي الْآيَةِ النَّهْرُ الصَّغِيرُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْقَرِينَةُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾، قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَأْكُولَ وَالْمَشْرُوبَ هُوَ مَا تَقَدَّمَ الِامْتِنَانُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، لِأَنَّ الْمَعِينَ الْمَاءُ الْجَارِي، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ الْجَدْوَلُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالسَّرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ». (أضواء البيان ٣/٣٩٥).

وفي هذه اللفتة إيماءة إلى كلِّ امرأة تصاب بالحُزن أن تلتفت إلى نعم اللَّه التي تحفُّ بها فِي نفس المصيبة التي أحزنتها، فكثير منَّا لا يلتفت إلى البياض فِي السواد الذي يحلُّ به.

إن الإشارة ابتداء إلى وجود الماء حول مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بل بين يديها، إشارة إلى أهمية الماء لها، وأن هذه الأهمية غير قاصرة عَلَى الشرب منه،

فحاجة النَّاس إلى الماء أكبر بكثير من حاجتهم إلى الطعام.

وخاصَّة فِي مثل وضع مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، فهي فِي حالة نِفاس من ولادة، تحتاج إلى تنظيف نفسها بالماء باستمرار، وهي تحتاج كذلك إلى تنظيف وليدها بالماء، كما تحتاج إليه لشربها وإرواء ظمئها، والتبريد عَلَى نفسها وَعَلَى وليدها من حرِّ الشمس، وغيرها من حاجات النَّاس للماء.

وليست هذه هي النعمة الوحيدة التي أشار إليها من ناداها من تحتها، وإنَّما بدأ بأهمِّها ثم أعقبها بنعم أخرى..

(١٦) مريم تهزُّ النَّخلة وهي نُفساء

عادة ما تكون المرأة بعد الولادة مباشرة فِي أضعف أحوالها وقوتها، حتى وليدها قد يصعب عليها حمله، وهي بحاجة إلى رعاية فِي هذه الفترة حتى تستردَّ أنفاسَها.

وأكثر من يقف مع المرأة فِي هذه الفترة الحرجة لها، أُمُّها، وأَخواتها. ولذلك كان من عادة بعض المجتمعات أنَّ المرأة بعد الولادة مباشرة تجلس فترة النِّفاس عند والدتها لِتُعينها عَلَى ما هي فيه، ولتعلمها من خبرتها فِي الحياة كيفية التعامل مع المولود الجديد.

أمَّا فِي حالة مريم عليها السلام، فإنها تفتقد لكلِّ ما ذكرنا، بل الأمر أصعب من ذلك جدًّا فهي تعاني نفسيًّا من قضية مواجهة قومها بوليدها، فهي لا تفكِّر الآن فيمن يخدمها أو يعينها عَلَى آلام الولادة والنفاس، وإنَّما تفكِّر كيف تواجه قومها، وماذا تقول لهم.

فكان العلاج الأوَّل لنفسيَّة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ إبعادَ الحُزن عن نفسها بالنَّظر إلى النِّعم من حولها، كما قال اللَّه تعالى فِي كتابه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]، ووجود الماء حولها نِعمة عظيمةٌ.

ثُمَّ قال لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

طلب منها أن تَهزَّ النَّخلةَ التي كانت قبل قليل تستندُ إليها فِي ولادتها، لِقوَّة جذعها وصَلابتها وثباتِها فِي الأرض، يطلب منها أن تهزَّها!.

كيف تَهزُّ مريمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ جِذعَ النَّخلةِ، والنَّخلةُ لا يحرِّك جِذعَها الرجلُ القويُّ الشديدُ؟!.

ثُمَّ هي مع ذلك نفساء يعني فِي أشدِّ حالات الضعف التي تمر بها المرأة!.

أضيفي إلى ذلك أنَّ الرطب لا يسقط فِي العادة من هزِّ النخلة، بل لابدَّ أن يصعدَ إليه المزارع ويلتقطَه من النخلة مباشرة.

ومع ذلك كلِّه يقولُ لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ الْآيَةَ، أَنَّ السَّعْيَ وَالتَّسَبُّبَ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا، وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا أَمْرٌ كَالْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فِي الدُّنْيَا أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ بِحَالٍ؛ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَتَعَاطَى السَّبَبَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ مَعَ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وُقُوعَهُ، فَهُوَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ، عَالِمٌ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَخَلُّفَ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ عَنْ مُسَبَّبَاتِهَا لَتَخَلَّفَ.

وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ الْآيَةَ [الأنبياء - ٦٩]، فَطَبِيعَةُ الْإِحْرَاقِ فِي النَّارِ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يَتَجَزَّأُ إِلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَعَ هَذَا أَحْرَقَتِ الْحَطَبَ فَصَارَ رَمَادًا مِنْ حَرِّهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي هِيَ كَائِنَةٌ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَدَلَّ ذَلِكَ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ التَّأْثِيرَ حَقِيقَةً إِنَّمَا هُوَ بِمَشِيئَةِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ يُسَبِّبُ

مَا شَاءَ مِنَ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَى مَا شَاءَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِنْ أَوْضَحِ الْأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ رُبَّمَا جَعَلَ الشَّيْءَ سَبَبًا لِشَيْءٍ آخَرَ مَعَ أَنَّهُ مُنَافٍ لَهُ، كَجَعْلِهِ ضَرْبَ مَيِّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَعْضٍ مِنْ بَقَرَةٍ مَذْبُوحَةٍ سَبَبًا لِحَيَاتِهِ، وَضَرْبُهُ بِقِطْعَةٍ مَيْتَةٍ مِنْ بَقَرَةٍ مَيْتَةٍ مُنَافٍ لِحَيَاتِهِ؛ إِذْ لَا تُكْسَبُ الْحَيَاةُ مِنْ ضَرْبٍ بِمَيْتٍ، وَذَلِكَ يُوَضِّحُ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُسَبِّبُ مَا شَاءَ مِنَ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَى مَا شَاءَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَلَا يَقَعُ تَأْثِيرٌ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ أَنَّ تَعَاطِيَ الْأَسْبَابِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف - ٦٧]، أَمَرَهُمْ فِي هَذَا الْكَلَام بِتَعَاطِي السَّبَبِ، وَتَسَبَّبَ فِي ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصِيبَهُمُ النَّاس بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُمْ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا أَبْنَاءُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ أَهْلُ جَمَالٍ وَكَمَالٍ وَبَسْطَةٍ فِي الْأَجْسَام، فَدُخُولُهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ مَظِنَّةٌ لِأَنْ تُصِيبَهُمُ الْعَيْنُ فَأَمَرَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ وَالدُّخُولِ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ تَعَاطِيًا لِلسَّبَبِ فِي السَّلَامَةِ مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، وَمَعَ هَذَا

التَّسَبُّبِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف - ٦٧]، فَانْظُرْ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ التَّسَبُّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾، وَبَيْنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ. وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسْقِطَ لَهَا الرُّطَبَ مِنْ غَيْرِ هَزِّ الْجِذْعِ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهَا بِالتَّسَبُّبِ فِي إِسْقَاطِهِ بِهَزِّ الْجِذْعِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ.

وَهُزِّي إِلَيْكَ الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبُ.

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ.

جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبُ». {أضواء البيان ٣/٣٩٨}.

وهذا يعني أختي الكريمة أن الجلوس والنَّدب عَلَى حالنا ووضعنا من غير الأخذ بالأسباب مخالفٌ للشرع.

فلا يكفي أن نجلس ونتحدَّث عن انحراف الفتيات اليوم وجهودِ أهل الفساد فِي ذلك، بل لابدَّ من العمل

بالأسباب الشرعية التي تقاوم مثل هذه الانحرافات وَعَلَى رأسها الدعوة إلى اللَّه ونشر الحقِّ الذي يدمغ اللَّه به الباطل.

كذلك الظلم الواقع عَلَى المرأة فِي بعض المجتمعات بسبب العادات والتقاليد الجاهلية، لا يمكن تغييره بالبكاء والصمت، وإنَّما يُغَيَّر بإنكاره وبيان الحقِّ الذي شرعه اللَّه ﷻ للمرأة فِي مثل هذه القضايا التي تُظلم فيها، كمنعها من الميراث فِي بعض المجتمعات، وتسلُّط الرجال من محارمها عَلَى أموالها، وأكل بعض الأولياء لمهرها، وإلزامها بزوج لا تريده، وغيرها من صور الظلم النابعة من عادات جاهلية مخالفة للشرع.

وأيضًا أختي الكريمة، المشاكل الزَّوْجيَّة لا تُحلُّ بدون الأخذ بأسباب الحلِّ المشروعة، والتي من أهمِّها تغيير النفس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، ثُمَّ استشارة أهل الاختصاص مبكرًا قبل استفحال المشكلة.

والفتاة التي لم تتزوَّج بعد، وتتمنَّى الزواج هي بحاجة كذلك إلى الأخذ بالأسباب المشروعة لنيل ما تتمنَّى، والتي منها الدعاء وَهُوَ عَلَى رأسها.

وليس من الأسباب المشروعة التبرُّج، أو التعرُّف عَلَى الشباب عبر وسائل التواصل الاجتماعيِّ، ولا العمل المختلَط، فإن ما عند اللَّه لا يُنال بمعصية الله.

واعلمي أختي الكريمة أنَّ من أعظم الأسباب التي تعينك عَلَى مرادك فِي الحياة هو قوة ارتباطكِ وعلاقتكِ باللَّه ﷻ فِي حال الرخاء والشدة.

هذه العلاقة التي بينك وبين اللَّه ﷻ تتجلَّى فِي طاعتك للَّه وتقرُّبك إليه بأنواع العبادات.

وتأمَّلي حال مريم عليها السلام، كيف كانت قبل حَملها، كانت قد أعدَّت لنفسها مكانًا خاصًّا لعبادتها وتقرُّبها إلى اللَّه، وكانت كثيرة الصلاة والمناجاة للَّه ﷻ، فلمَّا ابتلاها ربُّها بالحمل لم يتركها وحدها فِي هذا الابتلاء، وإنَّما أعانها عليه من كلِّ النواحي كما مرَّ بكِ فِي حلقة سابقة، وكما سنذكره فِي حلقة قادمة إن شاء الله.

هذه العلاقة باللَّه تتجلَّى لكِ آثارها فِي مواقف تنقطع فيها الأسباب المادية المتعلِّقة بالأمر الذي يمرُّ بكِ، مثل ما حصل لأصحاب الغار الذين أطبق عليهم الغار ولم يستطيعوا أن يزحزحوا الصخرة من مكانها مع

أنهم ثلاثة رجال، فلجأوا إلى التوسُّل إلى اللَّه بأرجى عمل لهم يظنُّون أنهم أخلصوا فيه، فلمَّا فعلوا ذلك فرَّج اللَّه عنهم.

إن ثباتك أُختي الكريمة عَلَى الحقِّ فِي زمن الفتن التي تحيط بالناس اليوم من كلِّ جانب، يحتاج إلى الأخذ بالأسباب المشروعة، مثل كثرة الدعاء الوارد عن النبي ﷺ فِي تقليب القلوب، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا». ﴿رواه أحمد﴾.

فهذا سبب من الأسباب، ومنها كذلك الرفقة الصَّالحة، لقول النبي ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». ﴿رواه أبو داود﴾.

ومنها البعد عن مواطن الفتن وعدم ولوجها، فإنكِ لا تدرين كيف تؤثِّر عَلَى قلبكِ.

ومن أخطر مواطن الفتن ميادين الاختلاط بالرجال، كالجامعات المختلطة، والوظائف المختلطة.

ولا يغرَّنكِ مَن يُزيِّن لكِ الاختلاطَ بحُجَّة الدعوة إلى اللَّه وتعلُّم العِلم الشرعي، فإن هذا من مداخل إبليس عَلَى الصالحين.

ومن مواطن الفتن التعرُّض للشبهات بحُجَّة الردِّ عليها قبل ثبات القدم بالعلم الراسخ والعقيدة الصحيحة.

فهذه أسباب لا تتغافلي عنها أُخيَّتي، فإنكِ مأمورةٌ بالأخذ بها، كما أُمِرَتْ مريم بهزِّ النخلة لتأكل.

ولا يُتصوَّر فِي ديننا أن الأخذَ بالأسباب مطلوب فِي طلب الرِّزق، ومُهمَلٌ فِي طلب الهداية والثبات عليها.

أسأل اللَّه أن يُثبِّتنا عَلَى الحقِّ إلى يوم لُقياه.

(١٧) وقرِّي عينًا يا مريم

بعد أن ولدت مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام، بدأت المخاوف تنتابها أكثر، ولذلك قالت عند الولادة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]، هذه المخاوف تتركَّز فِي كيفية مواجهة قومها؛ ماذا ستقول لهم، وماذا سيظنُّون بها؟.

هذه المواجهة تحتاج إلى هدوء نفسي حتى تعرف ماذا تقول وكيف تتصرَّف، كما تحتاج إلى قوَّةٍ نفسيَّة تَمتصُّ ظنونهم بها أيًّا كانت هذه الظنون، والتي لا يُتوقَّع أن تكون ظنونًا حسنة، وتَمتصُّ كلامهم الجارح الذي قد يُوجَّه إليها.

لذلك لابد أن تكون مريم عليها السلام مطمئنة عند مواجهة قومها.

فمريم عليها السلام بحاجة إلى أَمرينِ لِتطمئنَّ نفسُها وتتمالك فِي مواجهة قومها:

الأوَّل: الراحة البدنية بعد الولادة.

فإن الجسد إذا كان متعبًا صعُب عليه التفكيرُ والتركيزُ. والمرأة بعد الولادة بحاجة إلى ما يُقوِّي بدنها لتعود لها صِحَّتها، وتَقوَى عَلَى التفكير والتركيز فيما تقول وتفعل.

لذلك قال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم: ٢٥ - ٢٦].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَكُلِي مِنَ الرُّطَبِ الَّذِي يَتَسَاقَطُ عَلَيْكِ، وَاشْرَبِي مِنْ مَاءِ السَّرِيِّ الَّذِي جَعَلَهُ رَبُّكِ تَحْتَكِ، لَا تَخْشَيْ جُوعًا وَلَا عَطَشًا ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ يَقُولُ: وَطِيبِي نَفْسًا وَافْرَحِي بِوِلَادَتِكِ إِيَّايَ وَلَا تَحْزَنِي. وَنُصِبَتِ الْعَيْنُ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَوْصُوفَةُ بِالْقَرَارِ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: وَلْتَقْرُرْ عَيْنُكِ بِوَلَدِكِ». (جامع البيان ١٥/٥١٥).

وقال أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ: « ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، فكلي من الرطب الجَنيّ، واشربي من الجدول السِّريّ، ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بما وهبك اللَّه تعالى من غلام زكيّ.

وقَرارُ العَين سكونُها، وإن الإنسان فِي اضطرابه

وخوفه تدور عينه ولا تستقرُّ، فكَنَّى بقرار العَينِ عن السكون والاطمئنان، فقرارُ العَينِ يُعلن عن قَرار النفس، والأمرُ بقرارِ العَين وإن لم تكن تحت سلطان الإرادة أمرٌ باطمئنان النفس وإبعاد الهواجس المخيفة، وألَّا تتوقَّع سُوءًا؛ لأن اللَّه معها، وقامت الخوارق الدالَّة عَلَى أنه سبحانه وتعالى معها، ومن كان اللَّه معه فإنه يجب أن يكون مطمئنًا قريرَ العَينِ والنَّفسِ». (زهرة التفاسير ٩/٤٦٣٠).

فأرشدَها إلى ثلاثةِ أُمور لتحقُّقَ الأمر الأوَّل وَهُوَ راحة البدن، وهي:

١) الأكل من الرُّطبِ المتسَاقطِ من النَّخلة بعد هزِّها لها. «وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ خَيْرَ مَا تَطْعَمُهُ النُّفَسَاءُ الرُّطَبُ، قَالُوا: لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحْسَنَ لِلنُّفَسَاءِ مِنَ الرُّطَبِ لَأَطْعَمَهُ اللَّهُ مَرْيَمَ وَقْتَ نِفَاسِهَا بِعِيسَى». (أضواء البيان ٣/٣٩٨).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالرُّطَبُ: تَمْرٌ لَمْ يَتِمَّ جَفَافُهُ. وَالْجَنِيُّ: فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَيْ مُجْتَنًى، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ حَدَثَانِ سُقُوطِهِ، أَيْ عَنْ طَرَاوَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الرُّطَبِ الْمَخْبُوءِ مِنْ قَبْلُ لِأَنَّ الرُّطَبَ مَتَى كَانَ أَقْرَبَ عَهْدًا بِنَخْلَتِهِ كَانَ أَطْيَبَ طَعْمًا». (التحرير والتنوير ١٦/٨٨).

٢) الشرب من الماء المعين. «﴿وَمَعِينٍ﴾ أي ماء طاهر ثرّ». (زهرة التفاسير ١٠/٥٠٨١).

٣) الفرح والسرور بالمولود.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب والهني». (تفسير السعدي ٤٩٢).

الأمر الثاني الذي تحتاجه مريم لتطمئن نفسها هو: الكلام والحُجَّة التي ستواجه بها قومها.

قد تكون نفس مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ مشغولة بالتفكير فِي ماذا ستقول لقومها، فجاءها الإرشاد إلى عكس ما يدور فِي نفسِها، وما يشغل بالَها، جاء الإرشاد لها أن تصمتَ ولا تتكلَّمَ، بل تتعبد اللَّه بالصمت عن الكلام مع البشر.

قال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ: فَإِنْ رَأَيْتِ مِنَ بَنِي آدَمَ أَحَدًا يُكَلِّمُكَ أَوْ يَسْأَلُكِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكِ وَأَمْرِ وَلَدِكِ وَسَبَبِ وِلَادَتِكِهِ ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ يَقُولُ: فَقُولِي: إِنِّي أَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي لِلَّهِ صَمْتًا

أَلَّا أُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْ بَنِي آدَمَ الْيَوْمَ». (جامع البيان ١٥/٥١٦).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أَيْ مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ لِئَلَّا يُنَافِيَ: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال: صَمْتًا، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ: صَوْمًا وَصَمْتًا، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا.

وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيعَتِهِمْ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالْكَلَامُ، نَصَّ عَلَى ذَلِكَ السُّدِّيُّ وقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ حَارِثَةَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَجَاءَ رَجُلَانِ فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُسَلِّمِ الْآخَرُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ قال أصحابه: حلف أن لا يُكَلِّمَ النَّاس الْيَوْمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مسعود: كلِّم النَّاس وسلِّم عليهم، فإنَّ تِلْكَ امْرَأَةٌ عَلِمَتْ أَنَّ أَحَدًا لَا يُصَدِّقُهَا أَنَّهَا حَمَلَتْ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ، يَعْنِي بِذَلِكَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا

السَّلَامُ، لِيَكُونَ عُذْرًا لَهَا إِذَا سُئلت. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير». (تفسير ابن كثير ١٩٩/٥).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنَّما أُمرت بذلك لِئلَّا تُسألَ عن ولدها». (بدائع الفوائد ٢١٨/٤).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما من جهة قالة النَّاس، فأمرها أَنَّهَا إذا رأت أحدًا من البشر، أن تقول عَلَى وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: سكوتًا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: لا تخاطبيهم بكلام، لتستريحي من قولهم وكلامهم.

وكان معروفًا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنَّما لم تُؤمر بخطابهم فِي نفي ذلك عن نفسها لأن النَّاس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتُها بكلام عيسى فِي المهد، أعظمَ شاهد عَلَى براءتها، فإن إتيان المرأة بِولَد من دونِ زوج، ودعواها أنه مِن غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تُصدَّق بذلك، فجُعِلت بَيِّنةُ هذا الخارق للعادة، أمرًا من جنسه، وَهُوَ كلام عيسى فِي حال صغره جدًّا». (تفسير السعدي ٤٩٢).

وفي هذا الأمر الذي وقع لمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ عِبرةٌ لِكلِّ

من يَسعى فِي حلِّ المشاكل الاجتماعية، أو الأُسريَّة، فِي الاستفادة من هذه الخطوات العملية.

فصاحب المشكلة غالبًا ما يكون تفكيره تحت سيطرة العَواقب السيئة للمشكلة، وقد يصعبُ عليه أن يرى الحلَّ، فهو بحاجة إلى من يُبصِّرُه بالطريق.

لذا عَلَى الساعي فِي الإصلاح أن يُخرجَه أولاً من النظرة المتشائمة لمشكلته إلى سعة رحمة اللَّه بعباده، ولُطفه بهم، بتبصيرِه بجوانبِ لُطف اللَّه ﷻ به ونِعَمِه عليه فِي المشكلة نفسها.

ثمَّ يصلُه باللَّه مباشرة من خلال تعليمه الدعاء العظيم فِي ذهاب الهمِّ والحَزَن، ليُذهِبَ اللَّه عنه ما أصابه من الهمِّ والحَزَن، ويسهلَ عليه النظر إلى حقيقة مشكلته التي ملأت صدره همًّا وحُزنًا.

فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ، إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ

تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ». {رواه ابن حبان}.

وصاحب المشكلة المهموم غالبًا ما يُعرِض عن الطعام فلا يشتهيه، من شِدَّة التفكير والحُزن المسيطر عَلَى نفسه فِي المشكلة. فيضعف جسمه ويضعف تفكيره كذلك.

لذا عَلَى الساعي فِي الإصلاح أن يُرجِعَ صاحب المشكلة إلى وضعه الطبيعيِّ حتى تهدأ نفسه ويأكل ويستطيع أن يُفكِّرَ ويتفاعل مع الحلِّ الذي يُطرح عليه.

وقد أرشدتنا السُّنَّةُ النبويَّةُ إلى نوع من الطعام يفيد فِي حالات الحزن بشكل كبير. فعَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا، أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ، ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصُبَّتِ التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «التَّلْبِينَةُ

مَجَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ». (رواه البخاري)

قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ: «(التَّلْبِينَةُ): حساء من دقيق ونخالة». (التوضيح ٢٦/١٧٦).

«ومعنى: (مَجَمَّةٌ): مريحة وتُسرِّي عنه همَّه». (التوضيح ٢٦/١٧٦).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعناه أَنَّهَا تُقوِّيه وتُنشطه، وذلك أَنَّهَا غذاء فيه لطافةٌ سهل التناول عَلَى المريض، فإذا استعمله المريض اندفع عنه الحرارة الجوعيَّة وحصلت له القوة الغذائية من غير مشقَّة تلحقه فيُسرَّى عنه بعضُ ما كان فيه، ونشط، وذهب عنه الضيق والحزن الذي كان يجده بسبب المرض.

وإنَّما كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصنعها لأهل الميِّت وتثرد فيها لأن أهل الميت شغلهم الحزن عن الغذاء فاشتدَّت حرارة أحشائهم من الجوع والحزن، فلمَّا أطعمتهم التلبينة انكسرت عنهم حرارة الجوع فخفَّ عنهم بعض ما كانوا فيه». (المفهم ٥/٦٠٧).

أسأل اللَّه أن يُذهِبَ همومَنا وأحزانَنا ويُبدلنا بها فرحًا وسرورًا وعافيةً فِي الدنيا والآخرة.

(١٨) ثقة مَرْيَم بنصر اللَّه لها

بعد أن اطمأنَّت نفسُ مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ، حملت وليدها واتَّجهت إلى قومها بكل ثقة فِي أنَّ اللَّه ناصرُها ومؤيِّدها، وأنَّه سيتولى أمرها.

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧].

قَالَ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ عِيسَى لِأُمِّهِ اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهَا، وَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَحَمَلَتْهُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا». {جامع البيان ١٥/٥٢٠}.

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَتَتْ مُعْلِنَةً بِهِ غَيْرَ سَاتِرَةٍ لِأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ اللَّهَ سَيُبَرِّئُهَا مِمَّا يُتَّهَمُ بِهِ مِثْلُ مَنْ جَاءَ فِي حَالَتِهَا». {التحرير والتنوير ١٦/٩٤}.

وهكذا ينبغي للفتاة المسلمة أن تثق بوعد اللَّه لكلِّ مَن نصر دينه أن يَنصره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧].

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا أمرٌ مِنه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا اللَّه بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه اللَّه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم اللَّه وثبَّت أقدامهم، أي: يربط عَلَى قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثَّبات، ويُصبر أجسامهم عَلَى ذلك، ويُعينهم عَلَى أعدائهم.

فهذا وعدٌ مِن كريمٍ صادق الوعد، أنَّ الذي يَنصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، ويُيَسر له أسباب النَّصر، من الثبات وغيره». ﴿تفسير السعدي ٧٨٥﴾.

ومِن أهمِّ طُرق نصركِ لدين اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، الثَّبات عليه. فقد مدح اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ثبات الصحابة فِي أصعب محنة مرت عليهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هذه المحنة العظيمة التي مرَّ بها الصحابة الكرام، ذكرها اللَّه بالتفصيل فِي سورة الأحزاب، هذه السورة التي تناولت أهمَّ أحكامكِ الشرعية الخاصة بكِ، وهي:

١) الحجاب داخل البيوت، .

٢) ولبس الجلباب خارج البيوت، .

٣) وتحريم التَّبرج والخضوع بالقول، .

٤) واختيار اللَّه لكِ القرار فِي البيت، لتستقر نفسكِ وتطمئن، مع عدم تحريمه خروجكِ من البيت لحاجاتك الشَّخصية والنَّفسية.

هذه السورة التي بيَّن اللَّه فيها الأحكام الخاصة بكِ، وبيَّن فيها محنة الصحابة التي وصفها بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]، هي نفسها التي بيَّن فيها أخطر أعدائكِ الذين يتربصون بكِ لإغوائكِ وإضلالكِ وصرفكِ عن دينكِ وهم:

١) المنافقون، .

٢) وأصحاب القلوب المريضة، .

٣) والمُرجفون فِي المجتمعات.

هؤلاء هم الذين يحاربون ما شرعه اللَّه لكِ من أحكام، فتوعدهم اللَّه بأشدِّ أنواع الوعيد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ

فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨-٦٢].

إنَّ المطلوب منكِ أختي الكريمة هو الثَّبات عَلَى الحق، والامتثال لشرع اللَّه المطهَّر، والثِّقة بوعد للَّه فِي الانتقام من هذه الشِّرذمة المجرمة التي تسعى لإفساد بنات المسلمين.

مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ واجهت قومها بطفل من غير زوج، وهي مطمئنَّة وواثقة بنصر اللَّه لها، لأنَّ هذا ما قضاه اللَّه لها لتكون هي ومولودها آية للعالمين.

لكنَّ ردَّت فعل قومها من قدومها بالطفل تَحمِله كانت كبيرة جدًا، فقد استنكروا ذلك استنكارًا شديدًا، وانهالوا عليها بالتوبيخ الشَّديد، لأنَّهم ظنوا بها الظنَّ السيِّئ، قال اللَّه مبينًا موقفهم منها: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧-٢٨].

قَالَ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذلك وأن لا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهَا سَتُكْفَى أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا، فَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ واستسلمت لقضائه، فأخذت وَلَدَهَا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا، وقالُوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أَيْ أَمْرًا عَظِيمًا». {تفسير ابن كثير ٥/٢٠٠}.

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ، وَرَأَوْا مَعَهَا الْوَلَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ، قَالُوا لَهَا: يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ، وَأَحْدَثْتِ حَدَثًا عَظِيمًا». {جامع البيان ١٥/٥٢١}.

ولا يُستَغرب من ردَّت فعل قومها عَلَى ما ظنُّوه من صنيعها، لأنَّ إنكار النَّاس للأمر المُستنكر مثل فاحشة الزِّنى، دليل عافيةٍ فِي المجتمع، وصلاح أهله.

المشكلة الكبرى لو أنَّهم لم يستنكروا عليها قدومها بطفل تحمله من غير زواج، وعدوا ذلك حريَّة شخصيَّة، كما تدعو إليه المجتمعات اليوم، فإنَّ هذا هو البلاء العظيم، أن تتبلد مشاعر النَّاس وأحاسيسهم عند

رؤية المنكر فلا يُنكرونه، فيكبر عَلَى ذلك الصغير حتى يراه أنَّه هو الحق وما خالفه هو الباطل.

أي أُخيَّتي، إنَّ من مقتضى ثباتكِ عَلَى الحق، قيامكِ بإنكار المنكر، إذ لا يكفي أن تصلحي نفسكِ فِي خاصة أمركِ وتتركي المنكرات من حولكِ من غير إنكار! فإن هذا مما لُعنت عليه بنو إسرائيل، قَالَ تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

قَالَ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لُعنوا فِي التَّوراة والإنجيل وَفِي الزَّبُورِ وَفِي الْفُرْقَانِ، ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فيما كانوا يعتمدونه فِي زمانهم، فقال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أَيْ كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثمَّ ذمَّهم عَلَى ذلك لِيُحذِّر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه، فَقَالَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾». (تفسير ابن كثير ٣/١٤٥).

وهذا يعني يا أُخيَّتي، أنَّه لا يَليق أن تكون لكِ

صديقة فِي غاية التبرج وتخرجين وتدخلين معها ثُمَّ هي لم تسمع منكِ كلمة نصحٍ ولو لمرة واحدة تنكرين عليها تبرّجها!.

ولا تقولي كلُّ إنسان مسؤول عن نفسه، فإنَّ النَّاس فِي عهد أبي بكر الصديق ﷺ لما فهموا قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥] عَلَى غير معناها الصحيح، قام فيهم أبو بكر الصِّديق معلمًا وموضحًا للمعنى الصحيح فقال:

أَيُّهَا النَّاس، إِنَّكُمْ تقرؤون هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاس إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ». (رواه الترمذي).

إنَّ قوم مَرْيَم عليها السلام قالوا لها لما رأوها تحمل طفلا ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٧]، لأنَّ الصورة التي يعرفونها فِي مثل هذه الحالة أنَّ المرأة غير المتزوجة إذا حملت فإنَّما تحمل مِنَ الزِّنى.

قَالَ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الَّذِي يُفْهَمُ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنَّ مُرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أَيْ: مُنْكَرًا عَظِيمًا؛ لِأَنَّ «الْفَرِيَّ» فَعِيلٌ مِنَ الْفِرْيَةِ، يَعْنُونَ بِهِ الزِّنَى؛ لِأَنَّ وَلَدَ الزِّنَى كَالشَّيْءِ الْمُفْتَرَى الْمُخْتَلَقِ؛ لِأَنَّ الزَّانِيَةَ تَدَّعِي إِلْحَاقَهُ بِمَنْ لَيْسَ أَبَاهُ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ «فَرِيًّا» الزِّنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء - ١٥٦]، لِأَنَّ ذَلِكَ الْبُهْتَانَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّهَا زَنَتْ، وَجَاءَتْ بِعِيسَى مِنْ ذَلِكَ الزِّنَى - حَاشَاهَا وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ - هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ لَهَا: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾، وَالْبَغِيُّ الزَّانِيَةُ كَمَا تَقَدَّمَ، يَعْنُونَ كَانَ أَبَوَاكِ عَفِيفَيْنِ لَا يَفْعَلَانِ الْفَاحِشَةَ، فَمَا لَكِ أَنْتِ تَرْتَكِبِينَهَا!». {أضواء البيان ٤١٣/٣}.

إنَّ تغليف فاحشة الزِّنَى بأسماء تخفف من شناعتها فِي المجتمع لا يُغير من الحقيقة شيئًا، إنَّ تسمية الزنى بـ (علاقة غير شرعية*، إنَّما يراد منه التَّخفيف عَلَى سامعها من بشاعة الجريمة، لأنَّ لفظة (الزِّنَى) تُوجع قلوبهم، وتُزعجهم، وتذكرهم بالشَّريعة الإسلاميَّة

والحدود التي فيها، فغيَّروا من وصفها بهذه الجملة الطويلة.

ومثل ذلك تسمية ابن الزِّنَى بـ (مجهول الأبوين)! لتخفيف المنكر عَلَى المجتمع ونتائجه المؤلمة.

وهذا جرهم إلى مصائب أعظم منها، وهي تسهيل فاحشة الزِّنَى فِي المجتمع باعتباره مسألة شخصيَّة تتعلق بالمرأة، وأنَّ المرأة تملك جسدها ولها الحريَّة فِي التصرف فيه.

وجرَّهم هذا إلى إباحة الإجهاض، بحُجَّة أن جسد المرأة مِلك لها، وهي التي تقرر متى تحمل، ومتى تسقط جنينها، وفي هذا تسهيل كبير لفاحشة الزِّنَى.

بل تجاوز الأمر إلى أكثر من ذلك، فأصبحت فِي الأقسام الصحيَّة إرشادات خاصة بما يسمى (الجنس الآمن) يشرحون فيه للفتاة كيف تمارس الزِّنَى من غير حمل، ولا أمراض جنسية!.

وقولي مثلها فِي مصطلح (الصِّحة الإنجابيَّة.٩

فهذه كلها مصطلحات ناعمة لتغليف فاحشة الزِّنَى وتيسيرها فِي المجتمعات.

إنَّ إنكار قوم مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ لفاحشة الزِّنَى ـ وحاشا مَرْيَم أن تقع فيها ـ دليل عَلَى سلامة المجتمع الذي كانت تعيش فيه مَرْيَم من الرضى بهذه الجريمة الفاحشة.

(١٩) تاريخ مريم الناصع

قبل الحكم عَلَى الأشخاص عند ورود الأخبار الصَّادمة عنهم، نحن بحاجة إلى معرفة تاريخهم، ومقارنته بما سمعناه من خبرٍ صادمٍ.

إنَّ هذا المنهج قد بيَّنه لنا ربنا سبحانه وتعالى بشكلٍ مفصلٍ فِي سورة النُّور فِي آيات براءة عائشة رضي الله عنها.

أمَّا فِي قصة مريم فالأمر مختلفٌ جدًا. فمريم عليها السلام قد قَدِمت عليهم وهيَ تحمل عَلَى كتفها طفلًا، وهي غير متزوجة! فهذا ليس خبرًا سَمعوه مِنَ النَّاس، وإنَّما حدثٌ رأوه بأعينهم!.

لذا استنكر قَومها هذا الفعل الذي هذه صورته، والتي لا يُظن بصاحبها إلَّا ظنًا سيئًا.

فقالوا لها: ﴿...يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٧-٢٨].

فتاريخ مريم عليها السلام يَشهد لها بمسيرةٍ طيبةٍ فِي الحياة لا تتناسب مع ما يرونَه أمامهم، لذلك استنكروا هذا الفعل منها أشدَّ الإنكار، وذكَّروها بمسيرة أهلها الصَّالحة فِي هذه الحياة.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ أَبُوكِ رَجُلَ سُوءٍ يَأْتِي الْفَوَاحِشَ ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يَقُولُ: وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ زَانِيَةً». (جامع البيان ١٥/٥٢٥).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أَيْ أَنْتِ مِنْ بَيْتٍ طَيِّبٍ طَاهِرٍ مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ، فَكَيْفَ صَدَرَ هَذَا مِنْكِ؟». (تفسير ابن كثير ٥/٢٠١).

وقال السعدي رحمه الله: «أي: لم يكن أبواك إلَّا صالحين سالمين من الشَّر، وخصوصًا هذا الشَّر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنتِ عَلَى غير وصفِهما؟ وأتيتِ بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية ـ فِي الغالب ـ بعضها من بعض، فِي الصَّلاح وضدِّه، فتعجبوا ـ بحسب ما قام بقلوبهم ـ كيف وقع منها». (تفسير السعدي ٤٩٢).

وقال الطَّاهر بن عاشور رحمه الله: «وَهُمْ أَرَادُوا ذَمَّهَا فَأَتَوْا بِكَلَام صَرِيحُهُ ثَنَاءٌ عَلَى أَبَوَيْهَا مُقْتَضٍ أَنَّ شَأْنَهَا أَنْ تَكُونَ مثل أَبَوَيْهَا». (التحير والتنوير ١٦/٩٦).

فقوم مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ يشيرون إليها بهذا الكلام إلى عدَّة معاني:

الأول: أنَّكِ من بيتٍ صالحٍ لم يُعرف والدكِ بالسُّوء، ولا والدتكِ بالبغاء، فمِن أينَ أخذتِ هذه الفعلةِ الشَّنيعة؟!.

وهذه مَنقبة لبيوتِ الصَّالحين وثناءٌ عليها فِي كَونِها حاضنةً صالحةً لا يَنبُت فيها إلَّا الصَّلاح.

كما أنَّ فيها تنبيهًا إلى أنَّ فساد الذريةِ المتربية فِي بيوتِ الصَّالحين إنَّما جاء بسببٍ خارجي، أو من بيئةٍ خارجيةٍ، كرُفقاء السُّوء، وغيره.

الثاني: يقولون لها: إنَّك من بيتٍ صالحٍ فلا يَليق بكِ أن تُخالفي سيرتهم الحسنة، لأنَّ فِي مخالَفتها إساءة لهم، وهذا ليس من البرِّ بهم.

الثالث: استخدم قوم مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ لهذا الأسلوب من الاستنكار الشَّديد، والتَّوبيخ الصَّريح، بهدف الإنكار عليها لئلَّا تستمر فِي طريقها الذي ظنُّوه بها.

لم تكن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وحاشاها بالسُّوء الذي ظنُّوه بها، ولكنهم لا يعرفون حتى تلك اللَّحظة أي تفسير آخر لما رأوه منها.

وفي هذا تنبيهٌ لكل فتاة إلى أنَّ أفعال الإنسان لها دلالاتٌ اتَّفق عَلَى كثيرٍ منها عموم النَّاس فِي المجتمعات، فلا تُطالب المجتمع أن يُفسِّر تَصرفاتها بخلاف ما أجمع عليه النَّاس، وإنَّما الواجب عليها أن تَتَحفَّظ فِي تصرفاتها، فإنَّ النَّاس لهم ظاهر أعمالها، أمَّا البواطن فلا يعلمها الا اللَّه جلَّ فِي علاه.

وقد جاء فِي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ رَاجِمًا أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ فُلانَةَ، فَقَدْ ظَهَرَ مِنْهَا الرِّيبَةُ فِي مَنْطِقِهَا، وَهَيْئَتِهَا، وَمَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهَا». ﴿رواه ابن ماجه﴾.

أفاد الحديث:

١) أنَّ منطق الفتاة يدل عَلَى مستواها الأخلاقي.

فإن كان فيه ما يَدل عَلَى سُوء الخُلُق ظنَّ النَّاس بها شرًّا.

ويدخل فِي منطقها كل ما تكتبه، أو تتكلم به فِي وسائل التَّواصل الاجتماعي اليوم.

٢) أنَّ هيئة الفتاة كذلك تَدله عَلَى مستوى السَّتر والحياء عندها.

فلا تلوم الفتاة النَّاس إذا طَعنوا فِي حيائِها عندما تخرج مُتبرجة، وتلبس ما يخدش الحياء.

ويدخل فِي ذلك ما تَنشره الفتاة مِن صورٍ لها، أو ما تَستحسنه مِن الصُّور لغيرها، وتضعها فِي مُعرِّفها فِي وسائل التَّواصل، فإنَّ كُلَّ هذه التَّصرفات تُنبئ عمَّا يَتردد فِي نفسها وتتمناه، ولو لم تفعله.

٣) أنَّ من يدخل عَلَى الفتاة من غير محارمها وتختلط به، أو تخلو به، يدل عَلَى مستوى العفَّة عندها.

فخلوتها بالشاب الأجنبي عنها فِي ميدان الدراسة، أو فِي ميدان العمل، ومخالطتها له، وركوبها معه فِي السيارة، أو الجلوس معه فِي أماكن خاصة كالمقاهي وغيرها، كل ذلك يدفع بالنَّاس إلى إساءة الظَّن بها، إذ لا دلالة عندهم عَلَى مثل هذه التصرفات إلى الظَّن السَّيئ.

وقد يكون ظاهر الفعل منكِ مغايرًا لباطنه، وهنا يلزمكِ البيان، حتى لا يُسيء النَّاس الظَّن بكِ.

ولكِ فِي تصرف النَّبيّ ﷺ فِي حادثة صفيَّة أم المؤمنين، رضي الله عنها، معه فِي اللَّيل أسوة حسنة.

فعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْغَوَابِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ مَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ باب الْمَسْجِدِ، الَّذِي عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَفَذَا، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» .قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا مَا قال، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قلوبكما شرًّا» ﴿رواه البخاري﴾.

هذه الحادثة تُشير إلى أنَّ وقتها كان فِي ظلمة الليل، والمنظر يشير إلى أنَّ النبي ﷺ واقف مع امرأة، فالموقف فيه رِيبة.

والنبي ﷺ بيَّن لنا أنَّ مثل هذه المواقف المُريبة يستغلها الشَّيطان ليقذف فِي قلب النَّاظر للموقف شرًا، وهذا دأب الشَّيطان.

وعلاج ذلك رفع الرِّيبة بالبيان الواضح.

وهذا المبدأ العظيم جاء ذكره فِي حديث سعد بن أبي وقاص عن النَّبيّ ﷺ قال: «وإيَّاك وما يعتذر منه». (رواه الطبراني).

أي لا ترتكبِي أمرًا تحتاجين فيه إلى الاعتذارِ منه.

وقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَمَا يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ، فَإِنَّمَا يُعْتَذَرُ مِنَ الذَّنْبِ، وَيُسْتَحْيَا مِنَ الْقَبِيحِ. (مكارم الأخلاق للخرائطي ١٦٣).

إنَّ سيرة مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ قبل هذا الموقف كُلَّها تدل عَلَى صلاحها، وكرامة اللَّه لها.

فمجيء هذا الموقف بخلاف سيرتها النَّاصعة هو سبب الاستنكار الشَّديد من قومها.

فكيف واجهت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ذلك؟.

(٢٠) عيسى ابن مَرْيَم يدافع عن أمِّه

بعد أن قَالَ قوم مَرْيَم عنها ما قالوا، انتظروا منها جوابًا عَلَى كلامهم، فلم تتكلم لأنَّها امتثلت لما أُمرت به من الصَّوم عن الكلام، لذلك استخدمت أسلوب الإشارة فِي الردِّ عليهم، فأحالت الجواب إلى الطفل الرضيع فِي مهده ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ﴾ [مريم: ٢٩] ، وهي تريد بهذه الإشارة أن اسألوا هذا الطفل فهو يجيبكم.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَمَّا قَالَ قَوْمُهَا ذَلِكَ لَهَا قَالَتْ لَهُمْ مَا أَمَرَهَا عِيسَى بِقِيلِهِ لَهُمْ، ثُمَّ أَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى عِيسَى أَنْ كَلِّمُوهُ». (جامع البيان ٥٢٦/١٥).

فاستغربوا من ذلك أشدَّ الاستغراب، وغضبوا من صمتها وإحالتهم عَلَى طفل رضيع فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَابُوا فِي

أَمْرِهَا، وَاسْتَنْكَرُوا قَضِيَّتَهَا، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعَرِّضِينَ بِقَذْفِهَا وَرَمْيِهَا بِالْفِرْيَةِ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً، فَأَحَالَتِ الْكَلَامَ عَلَيْهِ، وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا». (تفسير ابن كثير ٥/٢٠٢).

وهنا جاءت الآية العظيمة المُؤذِنة ببراءة مَرْيَم مما ظنُّوه بها، فأنطق اللَّه عيسى ابن مَرْيَم وَهُوَ فِي المَهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَهُوَ فِي المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهًا، أو ابنًا للإله، تعالى اللَّه عن قول النصارى المخالفين لعيسى فِي قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ومدعون موافقته.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب

﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنَّه عبد اللَّه، وأنَّ اللَّه علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثمَّ ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: فِي أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها اللَّه فِي من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى اللَّه فِي أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلُّها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضًا، أن أبرَّ والدتي فأُحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي له، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا﴾ أي: متكبرًا عَلَى اللَّه، مترفعًا عَلَى عباده ﴿شَقِيًّا﴾ فِي دنياي أو أُخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللًا متواضعًا لعباد اللَّه، سعيدًا فِي الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني». (تفسير السعدي ٤٩٢).

وبهذا يكون عيسى ابن مَرْيَم عليه الصلاة والسلام

قد برَّأ أمَّه مما ظنُّوه بها، لأنَّ كلام الطفل فِي المهد من غير المعهود بين البشر، إلا فِي حال حدوث كرامة وآية من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، مثل ما حصل لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

فلمَّا رأى قوم مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ هذه الآية العظيمة أيقنوا براءتها وصدقها.

وقد أخبر النَّبيّ ﷺ عن ثلاثة تكلموا فِي المهد منهم عيسى ابن مَرْيَم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَالَ: وَكَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ عَابِدٌ يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ، فَابْتَنَى صَوْمَعَةً وَتَعَبَّدَ فِيهَا، قَالَ: فَذَكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَوْمًا عِبَادَةَ جُرَيْجٍ، فَقَالَتْ: بَغِيٌّ مِنْهُمْ: لَئِنْ شِئْتُمْ لأُفْتِنَنَّهُ فَقَالُوا: قَدْ شِئْنَا، قَالَ: فَأَتَتْهُ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْ نَفْسَهَا مِنْ رَاعٍ كَانَ يَأْوِي غَنَمَهُ إِلَى أَصْلِ صَوْمَعَةِ جُرَيْجٍ، فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالُوا: مِمَّنْ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، فَشَتَمُوهُ وَضَرَبُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّكَ زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ غُلامًا. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. قَالَ: فَقَامَ فَصَلَّى وَدَعَا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْغُلامِ فَطَعَنَهُ بِإِصْبَعِهِ، وَقَالَ: بِاللهِ يَا غُلامُ، مَنْ أَبُوكَ؟

قَالَ: أَنَا ابْنُ الرَّاعِي. فَوَثَبُوا إِلَى جُرَيْجٍ فَجَعَلُوا يُقَبِّلُونَهُ، وَقَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، ابْنُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ». قَالَ: وَبَيْنَمَا امْرَأَةٌ فِي حِجْرِهَا ابْنٌ لَهَا تُرْضِعُهُ، إِذْ مَرَّ بِهَا رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا. قَالَ: فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ: اللهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. قَالَ: ثُمَّ عَادَ إِلَى ثَدْيِهَا يَمُصُّهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي صَنِيعَ الصَّبِيِّ وَوَضْعَهُ إِصْبَعَهُ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا. ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ تُضْرَبُ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا. قَالَ: فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الأَمَةِ فَقَالَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَى مَرَّ الرَّاكِبُ ذُو الشَّارَةِ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمُرَّ بِهَذِهِ الأَمَةِ فَقُلْتُ: اللهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهْ إِنَّ الرَّاكِبَ ذُو الشَّارَةِ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الأَمَةَ يَقُولُونَ: زَنَتْ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقَتْ، وَلَمْ تَسْرِقْ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ». ﴿رواه أحمد والبخاري﴾.

فكلام عيسى فِي المهد، آية من آيات اللَّه العظيمة دالة عَلَى نبوته، وَعَلَى صدِّيقيَّة أمِّه، واصطفاء اللَّه لها.

وكلام الطفل ابن البغي صاحب جريج، آية من آيات اللَّه جعلها اللَّه كرامة لجريج العابد تدل عَلَى براءته مما نسب له من الزِّنَى بالبغي، وهي دالة عَلَى نصرة اللَّه لأوليائه والدفاع عنهم.

وكلام الطفل الرضيع مع أمِّه آية من آيات اللَّه جعلها اللَّه عبرة لنا لنزن الأمور بميزانها الشرعي ولا ننخدع بالمظاهر البراقة، ولتعلم الأم كيف توجه أمنياتها فِي طفلها.

وأخيرًا، فإنَّ تفاصيل قصة مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ لم يعلم بها كثيرٌ من أحبار اليهود والنصارى، فهي من الغيب الذي أوحاه اللَّه سبحانه وتعالى إلى نبيه محمد ﷺ، قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

قَالَ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الْأَنْبَاءُ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ: أَيْ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ، وَيَعْنِي بِالْغَيْبِ، أَنَّهَا مِنْ خَفِيِّ أَخْبَارِ الْقَوْمِ الَّتِي لَمْ تَطَّلِعْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ

عَلَيْهَا وَلَا قَوْمُكَ، وَلَمْ يَعْلَمْهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَرُهْبَانِهِمْ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنَّهُ أَوْحَى ذَلِكَ إِلَيْهِ حُجَّةً عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَتَحْقِيقًا لِصِدْقِهِ، وَقَطْعًا مِنْهُ بِهِ عُذْرَ مُنْكِرِي رِسَالَتِهِ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَصِلْ إِلَى عِلْمِ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ مَعَ خَفَائِهَا وَلَمْ يُدْرِكْ مَعْرِفَتَهَا مَعَ خُمُولِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا إِلَّا بِإِعْلَامِ اللَّهِ ذَلِكَ إِيَّاهُ، إِذْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ فَيَقْرَأُ الْكُتُبَ فَيَصِلُ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْكُتُبِ، وَلَا صَاحَبَ أَهْلَ الْكِتَابِ فَيَأْخُذُ عِلْمَهُ مِنْ قِبَلِهِمْ». {جامع البيان ٥/٤٠١}.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ جاءهم بغيوب لا يعلمها إلا من شاهدها وَهُوَ لم يكن لديهم، أو من قرأها فِي كتب أهل الكتاب، ومحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ أمي من قوم أميين، أو من أعلمه اللَّه بها وَهُوَ ذاك ﷺ». {المحرر الوجيز ١/٤٣٥}.

والله عَزَّ وَجَلَّ قد قصَّ علينا فِي القرآن قِصَّة مَرْيَم بتفاصيلها وجعلها حجة عَلَى اليهود والنصارى لعلهم يؤمنون بنبوة نبينا محمد ﷺ، فنحن كذلك ينبغي علينا

أن نسرد تفاصيل هذه القصة عَلَى من حولنا من النصارى لعلهم يؤمنون.

ولكن ما هو موقف اليهود والنصارى من مَرْيَم عليها السلام؟.

(٢١) موقف اليهود والنَّصارى من مريم

وقع اليهود والنَّصارى فِي موقفهم من مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ بين طرفي نقيض.

فأمَّا اليهود فساروا فِي موقفهم من مَرْيَم وابنها عَلَى طريقتهم الضَّالة فِي معرفةِ الحقِ والإعراض عنه، وفي قتل الأنبياء ورميهم بعظائم الأمور.

فهذه الطَّائفة من اليهود وفي زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رأوا الآيات العظيمة الدالة عَلَى طُهر مَرْيَم وعفَّتها، والآيات الدالة عَلَى نبوَّة عيسى ابن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك لم يؤمنوا بها، ورموا مَرْيَم بالزِّنَى، وقالوا عن عيسى ابن مَرْيَم أنه ابن زنى.

ولذلك قَالَ اللَّه عن موقفهم هذا فِي كتابه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٦].

قال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني رميهم إياها بالزِّنا مع رؤيتهم الآية فِي كلام عيسى فِي المهد، وإلَّا فلولا الآية لكانوا فِي قولهم جارين عَلَى حكم البشر فِي إنكار حملٍ من غير ذَكر». (المحرر الوجيز ٢٨٢/٤).

وإذا تجرَّأ اليهود عَلَى قتل أنبيائهم، والطعن فِي أعراضهم، فلا يُستغرب أن يطعنوا فِي مَرْيَم العفيفة الطَّاهرة عَلَيْهَا السَّلَامُ، فهذه طريقتهم فِي التَّعامل مع أولياء اللّه.

قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

وكان عيسى ابن مَرْيَم ممن سعوا فِي قتله، قَالَ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

بل قد سعوا فِي قتل نبينا محمد ﷺ بالشاة المسمومة، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ. قَالَ: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَاكِ». ﴿رواه البخاري﴾.

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ»، فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ: «مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ؟»، قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاس مِنْكَ. فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُتِلَتْ، ثُمَّ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «مَازِلْتُ أَجِدُ مِنْ الأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي». ﴿رواه أبو داود﴾.

فاليهود قَتلة الأنبياء، دُعاة الشَّر والفساد فِي الأرض، ومن قرأ تاريخهم فِي أوروبا وكيف أخرجوا نساء النَّصارى من بيوتهن بعد الحرب العالميَّة، وسعوا

فِي إفسادهن واستغلالهن حتى وصل الحال إلى الإباحية المطلقة اليوم عند النَّصارى بجميع أشكالها.

وإذا كان هذا موقف اليهود من العفيفة الطاهرة مَرْيَم ابنة عمران عليها السلام، فلا تتوقعي أختي الكريمة من اليهود اليوم أنَّهم سيحرصون عَلَى طُهرِكِ وعفافِكِ.

وإذا كانت بداية الفساد الذي أحدثه اليهود فِي أوروبا هو إخراج المرأة من بيتها إلى ميادين العمل فِي المصانع وغيرها، ثم استغلالها بأبشع أنواع الاستغلال حتى رموها فِي الشوارع ضائعة تائهة لا تعرف للطهر طريقًا، ولا تختلف حياتها عن حياة البهائم، حتى نزلت مكانتها إلى الحضيض، فإذا كان هذا فعلهم مع النَّصارى، فلا تظنِّي بالدعوات المطالبة بعمل المرأة وخروجها من بيتها فِي مجتمعات المسلمين أَنَّهَا دعوات صالحة بعيدة عن مخططات اليهود.

إنَّ الذين قتلوا الأنبياء، لن يتورعوا عن قتل غيرهم إذا انتهت مصلحتهم معه، فالمسالمة والتطبيع مع اليهود لا تأتي بخيرٍ عَلَى أحدٍ أبدًا.

وأما موقف النَّصارى من مَرْيَم ابنة عمران عليها السلام، فهو الطرف النقيض من موقف اليهود، فغلوا فِي مَرْيَم

وابنها، حتى ألَّهوهما من دون اللَّه، قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

قَالَ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ تَارَةً أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. وَتَارَةً أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمَّا حِكَايَتُهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: إنْ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ فَالْمُفَسِّرُونَ يَقُولُونَ: اللَّهُ وَالْمَسِيحُ وَأُمُّهُ كَمَا قَالَ: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ أَيْ غَايَةُ الْمَسِيح الرِّسَالَةُ وَغَايَةُ أُمِّهِ: الصديقية لَا يَبْلُغَانِ إلَى اللَّاهُوتِيَّةِ؛ فَهَذَا حُجَّةُ هَذَا. وَهُوَ ظَاهِرٌ. وَمِنْ النَّاس مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْأَقَانِيمُ الثَّلَاثَةُ وَهِيَ الْأَبُ وَالِابْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ». (مجموع الفتاوى ٢/٤٤٤).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا أيضا مما يخاطب

اللَّه بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَضْرَةِ مَنِ اتخذه وأمه إلهين من دون اللَّهُ ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ». (تفسير ابن كثير ٣/٢٠٨).

وأما أُمَّة محمدٍ ﷺ فقد آمنت بما وصف اللَّه به مَرْيَم ابنة عمران عليها السلام، ولم ترفعها فوق مكانتها التي بينها اللَّه لنا، وبينها رسوله ﷺ، وهي بَشر من البشر فضَّلها اللَّه عَلَى نساء العالمين، وهي ممَّن كمل من النِّساء، كما أخبر عنها النَّبيّ ﷺ.

أختي الكريمة، .

إن اللَّه ﷻ قصَّ علينا القصص فِي القرآن لنتفكر فيها، فقَالَ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ، ولنأخذ العبرة منها، فقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وقصة مَرْيَم ابنة عمران عليها السلام مليئة بالعبر، منها ما يسر اللَّه ذكره فِي هذه السلسلة، ومنها ما لم يذكر،

وكلٌّ من تأمل القصَّة وتدبرها سيهديه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إلى ما فيها من عبر وحكم.

أسأل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلنا ممن انتفع بهذه القصة واستفاد منها.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

انتهت القصة بحمد اللَّه.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

هدهد
للطباعة والنشر